تحت الرَّماد

محمد سعيد العريان

جمع ودراسة/ وليد كساب

كتاب المجلة العربية

263

تحت الرَّمَاد

أوراقٌ من السيرة الذاتية
(مع وثائق تنشر لأول مرة)

محمد سعيد العريان

جمع ودراسة

وليد عبدالماجد كساب

كتاب المجلة العربية

263

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين).شارع المنفلوطي
هاتف: 4767345.4777943 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ح المجلة العربية، 1439هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كساب، وليد عبدالماجد
تحت الرماد.. أوراق من السيرة الذاتية: محمد سعيد العريان.- الرياض، 1439هـ
120ص؛ 21×14سم. - (كتاب المجلة العربية؛ 263)
ردمك: 978-603-8204-61-0
1 - العريان، محمد سعيد 2 - الأدباء المصريون أ.العنوان ب.السلسلة
أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 928.162 1439 / 8316

رقم الإيداع: 1439 / 8316
ردمك: 978-603-8204-61-0

المحتويات

المقدمة 9

أولاً: في النفس والمجتمع 21

ثانياً: في الأدب والثقافة 61

ثالثاً: مع أولاده 95

ملحق الوثائق 113

سيرة ذاتية 125

ولكنِّي سأظل أبداً، حُرَّ القلم واللسان
والوجدان!

محمد سعيد العريان

المقدمة

لسنا نحتاج إلى كثير جهدٍ وعناءٍ لإثبات أنَّ مدرسة الأصالة مغبونةٌ في ماضي الزمان وحاضره، تلك المدرسة التي استفرغَتِ الوسعَ في الحفاظ على هويتنا العربيــة والإسلامية، وعضَّت بالنواجذ علــى مقوماتها وأولها اللغة التي تنبَّه المحتل إلى أهميَّتها؛ فاجتهد في تذويبها باعتبارها أساساً متيناً من أساسات حضارتنا الإسلامية التي سادت قروناً بالعلم والعدل معاً.

ومن بين مَن بَخستْهم الحياةُ الثقافية حظهم من أبناء تلك المدرسةِ العريقة، يــبرزُ هذا الكاتبُ المبــدع؛ فهو المعلِّم التربويُّ الذي عمــل في التدريس، وهو الصحفي الذي شارك في تنوير الرأي العام وتثقيفه، وهو المدير الذي وُكِّلت إليــه أَزِمَّــة الأمور في عدة مؤسسات؛ وهو المُفكِّــر والمُحقِّق المُدقِّق، والباحث والروائــي القاصُّ، والكاتب المسرحي، ومبــدع أدب الطفل، وفوق هذا وذاك هو الإذاعي الذي كان الأطفال ينتظرون حديثه في الإذاعة منذ عام 1939، وكلهــا نشاطــاتٌ أتقنها العريان؛ حتــى إذا وقفت على مُنجــزه في أيٍّ منها؛ يُخيَّل إليك أنه لا يحسنُ غيرَه!

العريان.. شيء من حياته

في بيــت مــن بيوتات العلم العريقــة وُلد محمد سعيد العريــان في الثاني من ديسمــبر عام 1905 لأبٍ شيخٍ كبيرٍ أفناه تعاقب الأيام، كان من خطباء ثورة عرابــي 1879–1882، ومــع فشلها طاردته السلطات ففرَّ مــن القاهرة إلى طنطــا، وظــلَّ خلف الحُجُب حتى شمله عفوٌ عامٌ عــن الثوَّار؛ فعاش ما تبقى مــن حياته يُعلــم الناس العِلم، يقول العريــان: «لم أدرك أبي –رحمه الله– إلا شيخــاً حَطِماً قد قارب المائة أو جاوزها وسبقــه أهل جيله ورفقاء نشأته إلــى الله منــذ سنين بعيــدةٍ، فلم يكن له حــين أدركتُهُ معاصــرون يُذاكرهم

ويُذاكرونــه أو يُجاذبهــم ويُجاذبونه حديــث الماضي، وقد رأيتُــهُ يستقبل في حجرته التي لزمهــا بضع سنين قبل موته، كثيراً من أعيان الجيل ومشاهير أهل العلم، يخلون إليه ساعةً أو ساعاتٍ يُحدِّثونه أو يستمعون إلى حديثه».[1]

وإذا كان الإنســان ابــن بيئته -كما قــال علماء الاجتماع- فــإن صاحبنا قد ورث عــن أبيــه جانباً كبيراً من العلــم والولع بالكتب؛ فبــدأ دراسته بالمعهد الأحمــدي أحد المعاهد العلمية الكبرى في القطــر المصري آنذاك، ثم اتجه إلى دار العلوم حيث الأصالة والعراقة، كما ورث عنه صموده وشجاعته وحب الوطــن، فمــا إن نشبت ثورة 1919 التي خرج فيهــا المصريون على اختلاف طوائفهــم يطلبــون الحرية ورحيــل المستعمر البريطاني؛ حتــى كان التلميذ الصغــير أحــد المشاركين فيها، وقد سجَّل هذه التجربــة الفريدة بقلمه على النحو الذي سيجده القارئ الكريم بين دفتيّ هذا الكتاب.

في صحبة الرافعي

من الأحداث الجوهرية الفارقة في حياة العريان تعرُّفه إلى الأديب مصطفى صادق الرافعــي، ولم يكن من عادة الأخير أن يأنس لأحدٍ بسهولة، فقد كان يعيشــ في عزلةٍ نسبية بطنطا متفرغاً للكتابــة والإبداع، ولسنا نبالغ إن قلنا إنهــا من الأحــداث الفارقة في حياة الرافعي وأدبه أيضــاً، فما كان الرافعي يــدري حينها أنه علــى موعد مع تلميذٍ نجيبٍ وفيٍّ سيرعــى أدبه ويدافع عنه بشراسة في وقت كانت تقوى فيه غارة التغريب العاتية على كل ما هو أصيل، فمقــام العريان من الرافعي وأدبه كمقام أبي يوسف وأبي الحسن الشيباني من أبي حنيفة النعمان وفقهه.

وقــد عبَّر العريان عن أثره في الرافعــي بقوله: «ولم يكن له صديقٌ يأوي إليه

(1) راجع مقال (الدرس الذي علمني أبي) ضمن هذا الكتاب.

كمـا يأوي كل ذي نفس، إذ لم يكن جلســاؤه إلا بعض أهله أو بعض المعجبين بـه إعجاب العامة بـكل زائدٍ عليهم في فـنٍّ أو بعض الزمـلاء من الموظفين وكتبـة الدواوين. فلم يكن رجع الصـدى الذي يكشف له عن نفسه وفنه كما هـو في نفوس الناس. فلمـا اتصلت أسبابه آخر الأمر ببعض من يستطيع أن يتحـدث إليهم حديث النفـس إلى النفس في صدقٍ وإخلاصٍ بدأ يسلك في فنــه سبيلاً آخر قرب به ما كان بعيداً بينــه وبين الجماهير، واتصل ما كان مقطوعاً بينه وبينهم. ورجع إليه الصدى من البعيد البعيد؛ فسمع ما لم يكن يسمع، وأحسَّ ما لم يكن يُحس من عواطف الناس وعواطف نفسه، فَلَانَ بعد جمـودٍ، وسلس بعد تعقيدٍ، ورنَّ في الآذان رنينُ الموسيقى، ورفَّ رفيفُ الزهر في القلوب».

لقـد تأثر كلٌّ من المريد والشيخ ببعضهمـا، فالمريد وجد نفسه بصحبة رمزٍ من رموز مدرسة الأصالة ينحى إلى التجديد وعدم تقديس كل ما هو قديم، كمـا عاين بنفسه كيف كان شيخه يقرأ ويكتب، وكيف يقاتل عن مبادئه دون هـوادة، ووجد الرافعي سلواه في هذا الشـاب الأديب الذي يندر وجود مثله، فـكان أذنه التي يسمع بها، ويـده التي يكتب بها، ومؤشر قبول ما يُبدعُه، ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنَّ تعرُّف الرافعي إلى العريان وأحمد حسن الزيات كان لـه أكبر أثر في أدب الرجل؛ إذ أصبح خطابه موجَّهاً إلى القراء بعد أن كان موجَّهـاً إلــى نفسه فقط، وقد عبَّر بعض النقـاد عن ذلك بقولهم: «لقد أصبح الرافعي عريانياً، وقال البعض: بل أصبح العريان رافعياً».[1]

لا أريـد الإفاضة في الحديث عن علاقة العريان بالرافعيِّ وأثر كل منهما في الآخر، فمـن يتدبر حياة العريان يجد أنه دفع ضريبــة تعلُّقه بأستاذه الذي

(1) انظـر مـا كتبه محمد كامل حتة في كتاب: الخالدون.. بمناسبــة العيد الفضي لنقابة المعلمين 1981، ص 121.

لم يكـن محبوبـاً من المعسكر الحداثـي المقابل، وما أجمـل الوفاء؛ فقد ظلَّ العريـان يذكر فضل الرافعيِّ عليـه حتى بعدما عمل مع ألدِّ خصوم الرافعيِّ وهو الدكتور طه حسين الذي كان وزيراً للمعارف، قال العريان في كلمته التي ألقاها على هامش تكريمه في نقابة الصحفيين عام 1950، أي بعد أكثر من عقدٍ ونصف من الزمن على رحيل الرافعيِّ: «من حق الرافعيِّ عليَّ أن أذكر لـه يده على هذه المناسبـة، فهو الذي سدَّد خطاي إلى هـدف مرسوم، وهو الـذي جعـل كفاحي للعلم والأدب إلى غاية؛ فإذا كنـتُ اليوم شيئاً بينَ أدباء الجيـل؛ فتلك حسنةٌ من حسناته ويـدٌ من أياديه، وليكن الرافعيُّ عند بعض الأدبـاء ما يكون؛ فليس ينقص ذلك من قدره الأدبي شيئاً. لقد كان –رحمه الله– أديبـاً كبـيراً، له هدفٌ وغايـةٌ، وسيظل في التاريـخ أديباً من أصحاب الأهـداف والغايات، ولعلـي لا أُجاوزُ الحق إنْ قلـتُ: إنَّ الرافعيَّ كان فصلاً بعنوانه في تاريخ الأدب الحديث».[1]

وبسبـب مـن تلمذته على يد الرافعي حيناً من الدهـر وما حمله من أفكاره؛ تعرَّض العريان لهجمات شرسة من المناوئين لأفكاره، وهو ما لخَّصه صهره وخال أولاده الأستاذ محمد عبدالله الدماطي –ملحق مصر الثقافي الأسبق في عـدة دول– بقولـه: «ورغم أن أنصار اليسار قبـل سنين من وفاته تآمروا ضده؛ فإنه لم ينزو؛ بل دأب وعكف على نشر أفكاره بكل جرأة في محاضراته في مناسبات مختلفة في الداخل والخارج».[2]

---

(1) راجـع: كلمـة العريان ضمن كتاب: (مع سعيد العريان دراسة تحليليـة لأدبه)، الذي صدر في الاحتفالية التي أُقيمت له بدار نقابة الصحفيين في مساء يوم الخميس 26 يناير 1950.

(2) ذكـر ذلـك في وريقات كتبها تحت عنوان (سيرة حياة محمد سعيد العريان) مؤرخة في يناير 2003، ولا أدري إن كانـت نُشـرت أم لا، لكـن الكاتب أشار إلى أن سبب الكتابة هو مـا قرأه في صحيفة الأهرام في أغسطـس 2002 عن احتفـاء الدولة بمئوية دار العلوم، وقد تفضَّلت الدكتورة تهاني ابنة الأستاذ محمد سعيد العريان فمنحتني نسخة إلكترونية منها.

من مقاومة المحتل إلى خندق القومية

كان العريان ممن آمنوا بأهمية الكلمة والإبداع في صناعة الوعي لدى أُمته، وفي هذا الإطار أصدر قصة مدرسية تحت عنوان (الراية الحمراء) وقت أن كانت مصر محتلةً من البريطانيين الذين رأوا في هذه القصة تعريضاً بهم وتحريضاً عليهم؛ فصدر القرار بمصادرتها ومنع طباعتها وتداولها، وهذا حال الطغاة الذين تُرعبهم الكلمة أكثر مما يرعبهم السيف، إذْ حجة العلم أقوى وأمضى وأبقى من السيف مهما ترادفت الأزمان.

ويوم انخرط في الترويج للقومية العربية لكونها عاملاً من عوامل الوحدة ضد المحتل الأوروبي بذل كل جهده، وصاغ كل هذه الأفكار بلغة راقية حفظها أفراد الشعب رغباً ورهباً؛ حتى جاء اليوم الذي رأى فيه أنَّ القائمين على أزمَّة الأمور يريدون عروبةً بلا دين، عروبة تفتقد أهم عامل من عوامل بقائها وهو الدين، وتذكَّر كلمات الفيلسوف العبقري عبدالرحمن ابن خلدون حين قال: «العرب لا يحصل لهم المُلك إلا بصبغةٍ دينيةٍ من نبوةٍ أو ولايةٍ، أو أثرٍ عظيم من الدين على الجملة».[1]

لقد كان العريان رجلاً صلباً لا تلين له قناة؛ ولذلك خاض كثيراً من المعارك دون هوادة مستحضراً روح أستاذه الأول –الرافعي– الذي ألهمه كثيراً من أدبه وفكره، وبلغ التنكيل بالعريان مداه حيث تم إقصاؤه من وزارة المعارف في العام الدراسي 1945–1946 إثر خلافه مع وزيرها الدكتور عبدالرازق السنهوري الفقيه القانوني المعروف، وكان من ثمار هذه المحنة إخراج كتابه (على باب زويلة)، تلك الرواية التي تناولت فترة من فترات تاريخ مصر المملوكي، وهكذا أهدى السنهوري –من حيث لا يدري– المكتبة العربية طرحاً

(1) تاريخ ابن خلدون المعروف بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر 189/1، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ – 1988م.

أديباً جديداً استلهم التاريخ وصاغه في قالبٍ مشوقٍ صار نموذجاً اقتفى كثيرٌ من الأدباء أثره.

ألم الفقد

لقد قست الحياة كثيراً على العريان، فزوجته التي أحبها وبذل من أجل الظفر بها كل نفيس؛ لم يطل بها المقام في حياة الناس كثيراً، فغادرتها بعد نحو أربع سنواتٍ من الزواج تاركة خلفها طفلاً رضيعاً لم يُكتب له أن يراها، وبنتين صغيرتين غضَّتين لا تعيان شيئاً من أمور الحياة؛ فصار الزوج المكلوم أماً وأباً في الوقت ذاته، وعاش يعتصره الألم، وقيل إنه ظل مرتدياً رابطة عنق سوداء حداداً على زوجته حتى مات.[1]

وحسبنا أن نطالع بعض زفراته الحارة في هذه اللوحة المأساوية التي رسمها بريشة الألم؛ ففي مقالٍ كتبه بعد عام من رحيل زوجته؛ يقول عن ولده أحمد الذي ماتت أمه بعد شعورها بألمٍ في البطن فلم يجد الأطباء بُدّاً من الولادة المبكرة بعد أن استشعروا الخطر على حياة الجنين: «ولكنه لم يرها، وأحسبها لم تره كذلك، فقد نفخت فيه آخر أنفاسها وذهبت مغمضة العينين إلى غير معاد، وخرج إلى الدنيا بلا أمٍّ، ما حاجته بعد إلى أن ينظر ويرى؟... تعال إليَّ يا ولدي! إنني أنا أبوك وأمك منذ الساعة، إن كان لكلِّ طفلٍ في الحياة أبٌ وأمٌّ! ووضعته بيدي في مهده الأول وجثوتُ إلى جانبه أبكي بلا دموع، وكانت الريح تعصفُ، والدارُ خاليةٌ إلا من طفلٍ جائع وأب سقيم، وذكرى أمٍّ!!... وشبَّ الطفل على يديَّ واستدار العام، هذا عيدٌ مولده وإنه ليومُ الحداد، وكما تلقَّيته من يدَيّ حاضنته أول يوم والريح تنوح والجو عاصفٌ، تناولتُه اليوم بين يدي وفي قلبي مثل زفيفِ العاصفة من لوعة الذِّكرى! آه يا بني!».[2]

(1) انظر ما كتبه الدماطي في هذا الموضوع.

(2) راجع المقال المنشور في هذا الكتاب تحت عنوان: (بعدَ عامٍ.. وَلَدِي).

كتب العريان فصـــول مأساته التي أرَّقت قُرَّاءه في مشارق الأرض ومغاربها، حتــى إنَّ الأستــاذ أحمد أمين قــال إن العريان يُعذِّب القُــرَّاء، وكان الشاعر عبدالرحمــن صدقي أيضــاً يلومه طالباً إليه التصبُّر، ثـم حدث ما لم يكن في الحسبــان؛ فقد تُوفِّيت زوجة صدقي هي الأخــرى؛ فكتب فيه رثاءً جمعه بــين دفتيْ ديوانه (مــن وحي المرأة)، وبعد سنين عــدة أهدى الشاعر عزيز أباظة إلى العريان أول نسخة من ديوانه (أنَّاتٌ حائرةٌ)؛ إذْ توفيت زوجته هو الآخــر فرثاها بهذا الديوان[1]، لقد كان العريــان مُلهِماً لمن حوله في الأدب، والأحزان أيضاً.

العريان وأدب الطفل

أدرك العريــان منذ عمــل بالتدريس أن نهضة الأمــة وخلاصها لن يكون إلا بتعليم النشــء ورعايتهم رعايةً خاصةً ليكونوا لبنةً صالحةً في بناء ما تهدَّم من صرح حضارتها، فكتب كثيراً من قصص الأطفال؛ لأن الطفل كما يقول العريــان نفسه: «ولوعٌ بالقصة... والأدب العربي على سعته وغناه يكاد يخلو من القصة السهلة التي يستطيع الطفل أن يقرأها في رغبةٍ وشوقٍ»[2]، وهُدي إلــى عمل سلسلــة (القصص المدرسيــة) مع زميليه أمــين دويدار ومحمود زهــران لتكــون عاملاً أساساً في رفع وعي التلاميــذ، ولا شك أن العريان قد تأثَّــر كثيراً بمنجز كامل كيلاني في أدب الطفل، وكلا الرجلين تعرض لكثير مــن اللوم من قبل بعض أقرانهم الذين رأوا في هذا النوع من الكتابة إنفاقاً للوقــت وإهداراً للجهد؛ ولكن هؤلاء لم يتفهموا جيداً أهمية التنشئة الفكرية للطفل؛ فأطفال اليوم هم رجال الغد الذين يُعوَّل عليهم بناء الأمة.

(1) انظــر ما كتبه عباس خضر في كتابه (غرام الأدباء)، صــ 107-125، سلسلة اقرأ، العدد [157]، دار المعارف بمصر، يناير 1956.

(2) راجــع مقدمــة قصة (مدمس أكسفورد) ص 3، نقلاً عن د. زينب بيره جيكلي: أدب الأطفال عند محمد سعيد العريان، ص 11، مكتبة دار العلوم - الشارقة بالإمارات، والبلد الأمين - القاهرة.

ولم يتوقـف الأمر عند هذا الحد، ففي مطلع عـام 1952 كان العالم العربي علـى موعدٍ مع تدشين أكـبر مجلة متخصصـة في أدب الطفل وهي (مجلة سندباد) التي ظلت تصدر عِقْداً من الزمان، وكان العريان حريصاً على أن تجمع المجلة بين عنصري التعليـم والتشويق؛ فاختار أكبر الرسامين للقيام بهـذه المهمة وعلـى رأسهم الفنـان الأشهر حسين بيكار، وما هـي إلا أعداد قليلـة حتـى صار للمجلة جمهورهـا الواسع؛ فكان الأطفـال يترقَّبون صدور العدد، تماماً كما كانوا يترقَّبون برنامج العريان لهم في الإذاعة المصرية.

ولم يتوقـف دور (مجلة سندباد) عند هـذا الحد؛ فعقدت المسابقات الجادة التي كان لها مردودها في أرجاء الوطن العربي، وتعدَّى دور المجلة من مجرد القـراءة إلى تفعيل التواصـل المباشر عبر (ندوات سندبـاد) التي دعا إليها العريان في أرجاء الوطن العربي؛ فكانت الاستجابة الواسعة من أبناء العرب.

وظلـت المجلة تمارس دورهـا الذي اختطه لها العريـان حتى توقفت في عام 1962 إثـر خلافه مـع السنهـوري في حقبة زمنيـة بالغـة الصعوبة شهدت تراجعاً كبيراً في الحريات ودعم الفكر الجاد، ويُصدر العريان كتاباً ضخماً متعـدد الأجزاء يحمـل اسم (رحـلات سندباد)؛ فتمنحـه الدولة جائزتها التشجيعيـة في أدب الطفل عام 1963، وهي أول جائزة تُمنح في هذا المجال منـذ أنشأت الدولة جوائز للمبدعين والباحثـين في مجالات الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بموجب القانون رقم (37) منذ عام 1958.

التجديد في ساحة الأزهر

مـن الجوانب الغائبة التـي لا يعلمها كثيرون في حياة محمـد سعيد العريان أنـه نُدب وكيلاً إلى وزارة شـؤون الأزهر لغرض تطويـره، ويبدو أن علاقته بكمـال الدين حسـين –نائب رئيس الجمهوريـة آنذاك– كانـت وراء هذا

الاختيـــار، وفي مذكرات الدكتور محمد البهي -وزير الأوقاف وشؤون الأزهر في ذلــك الوقت- نجــد هذه السطــور المقتضبة: «والمرحــوم الأستاذ محمد سعيد العريان كان طاقةً كبيرةً في العمل، وهو مشكورٌ في كثيرٍ من القرارات التي استصدرها من السيد كمال الدين حسين أو من السيد حسين الشافعي بعــده، والتي تتصل بالمرحلة الأولــى من مراحل التنفيذ، ولكن — عليه رحمة الله- كان يميل إلى التفرُّد بالسلطة والتوجيه، وهذا الميل انتهى به أخيراً إلى إحالته للمعاش وإبعاده عن مؤسسات الأزهر كلها...».[1]

ويُفصِّــل البهي بعضــ الشيء السبــب المباشر حول إقصــاء العريان بقوله: «وأذكر أنــه كان بعد تعييني في مباشرة إدارة الجامعة وجَّه هو الدعوة لأمرٍ ما لاجتماع لجنة في مكتبي في وقت معين متحدياً وجودي ووظيفتي؛ ولكن لم يُمكَّن هو من الاجتماع ولا من دخول المكتب، وكانت هذه الحادثة هي السبب المباشر في إخراجه من محيط الأزهر».[2]

فــكلام البهي يؤكد قــرب العريان من كمال الدين حسين ومــن حسين الشافعي أيضــاً إلى الدرجــة التي جعلته أثــيراً لديهما، ويُثني علــى دوره في هذا القانون 103- لسنــة - 1961 الــذي قيل إن العريان هو من صــاغ مواده قبل إقرارها من المجلــس النيابي آنذاك، كمــا يشير البهي إلى أن العريــان كان يميل إلى التفرُّد بالسلطة في موقعه بوكالة الأزهر، وهو السبب الرئيس الذي أطاح به من الأزهر.

ولابــد هنــا أن نشير إلى الخــلاف الجوهري بين جمــال عبدالناصر وكمال الدين حســين، فقد كان الأخير ينادي بضرورة توافر الحريات وأولها حرية التعبير بعدما أضحى المعارضون مهددين في مورد رزقهم، فهل قامت الثورة إلا لتحريــر النــاس؟! كما كان يُلــحُّ في ضرورة أن تتبع الاشتراكية من تعاليم

(1) الدكتــور محمــد البهي: حياتــي في رحاب الأزهر طالــبٌ وأستاذٌ ووزيــرٌ، صـ 75-76، ط مكتبة وهبة، القاهرة.

(2) نفس الموضع السابق.

الديــن الحنيــف وليس من نظريــات ماركــس ولينين وغيرهم مــن مفكري الشيوعيــة، وقــد دار نقاشٌ ذات مــرة بينه وبــين عبد الناصر قــال له فيه: إنَّ أفـكار لينين لا تصلح لنــا؛ فقال عبد الناصر: كيف؟ قــال: لو كان هناك ميكانيكــي في ورشة ولديه عاملان هل يشاركانه في الأرباح بنسب متساوية؟ قــال عبد الناصر: نعــم أتصور هذا؛ فلم يجد كمال فائــدةً من النقاش! ولم يكن أمام عبد الناصر إلا تحديد إقامته في استراحة بضاحية الهرم.

لكــن الدكتورة تهاني العريان ترى أن إقصاء والدها عن وزارة شؤون الأزهر، ومن ثم عن مشروع التطوير، جاء نتيجة خلافه مع علي صبري –عضو مجلس قيــادة الثورة وأحد مراكز القــوى آنذاك– ومع اليســاريــين الذين لم يعجبهم موقفه المساند لكمال الدين حسين، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك.

هذا الكتاب

بــدأت معرفتــي بالعريــان من خــلال رواياتــه التاريخية المائــزة، وتوطَّدت العلاقة بأدبه مع مطالعة كتابه الفريد (حياة الرافعي)؛ ففضلاً عن أنفاس أستاذه مصطفى صادق الرافعي التي تردَّدت في جَنَبَات الكتاب؛ لمستُ مدى الوفــاء في حرصــه على التعريف بأستاذه الذي ظُلــم في حياته وبعد مماته، وبهرتنــي موضوعيتــه وتجــرُّده في الحديث عــن شيخــه؛ إذْ لم يحطه بهالةٍ مقدسةٍ كما دأب غيره ممن كتبوا عن أساتذتهم وذويهم؛ فرأينا الرافعيَّ في حلمه وغضبه، في التزامه وتجاوزه، في سعادته وحزنه، في اجتهاده وكَدِّه، في بيته ووظيفته، مع نفسه ومع الآخرين. وإجمالاً فقد كان العريان سبباً رئيساً في توطيد علاقتي بأدب الرافعيِّ، وهو ما شجَّعني على الاهتمام بأدبه نَصَفَةً له وانتصاراً لمذهبه الأصيل.

كان لابــد من زيــارة أسرة العريــان والتماس الوسيلة إليهــا لإخراج بعض

مجهولاتـه هـو الآخـر، فأكرمني أخي النابـه عبدالفتاح جمـال -مؤرخ دار العلـوم- بـأن وصَلَني بالدكتـورة تهاني التـي احتفت بي حفـاوة أخجلتني، ورأيـتُ منهـا حرصاً على إحياء تـراث أبيها وتجلية أدبـه ومنجزه الفكري، ومـن ثم ذلَّلتْ لي كثيراً من العقبات وأهدتنـي كثيراً من مقالات أبيها؛ وهو ما دفعني إلى إخراج هذا الكتاب على النحو الذي سيراه القارئ الكريم.

لقـد راودتنـي فكرةٌ لم أتصـور أن تُترجم واقعاً ملموساً؛ فقـد رأيتُ الرجل مهضـوم الحـقِّ مجهـول الأدب إلا لثلةٍ مـن مُحبِّي الأدب الأصيـل، ومن ثم فكَّـرتُ في التعريـف به من خلال ما كتبه هو بقلمه عـن نفسه، فرُحتُ أُنقِّب في تراثه الواسع أنتقي منه ما يُؤرِّخُ لشخصه ويُعبِّر عن ذاته، وما سجَّله من مواقف مشتركة مع كثيرٍ من معاصريه.

وبينمـا كنتُ حائراً في اختيار عنـوان مناسب لهذا الكتاب؛ وقفتُ على مقالٍ نـادرٍ كتبـه العريان رداً على رسالـة للأديب عبدالفتاح الغنـدور يطلب إليه أن يكتـب سيرتـه الذاتية هو الآخر، ويعتب عليـه -أي على العريان- دعوته الأدبـاء والمفكرين إلى أن يكتبوا سيرهم وتجاربهم بينما يتناسى نفسه وهو أحـق بهـا وأهلها؛ وقد وعد العريان بـأن يكتب بعض سيرتـه ويُضمنه كتاباً اسمـه (تحت الرماد) يضم بعض مقالات مجلتـيْ (الرسالة) و(الثقافة)، ومن هنا رأيتُ أن أُسمِّيه بهذا الاسم الذي أراده له صاحبه؛ فاستشرت ابنته الدكتورة تهاني فاستحسنت الاسم هي الأخرى.

إنَّ هذا الكتاب يضمُّ مقالات عدةً تكشف لنا جوانب خفية من حياة العريان، وبعض شؤونه الاجتماعية في بيته وعمله ومع أصدقائه ومعاصريه، ومواقفه مـن بعضٍ القضايا المهمـة، كما تُسجِّلُ بعضٍ جهاده في مقاومـة المستعمر البريطـاني ومعاناته الكبرى بفقد زوجتـه حتى صار مضرب المثل في الوفاء لزوجته على النحو الذي ذكرناه، وذكرياته في فلسطين التي حلَّ ضيفاً عليها

سنة 1938، وغيرها من المقالات التي تمثل حُمُولةً إنسانيةً تقطر وفاءً ونُبلاً.

وإنني لآمل أن يُضيف هذا الكتاب شيئاً ذا بالٍ إلى الساحة العطشى إلى الفكر الراقي والأدب الهادف في ظل هذا الغثاء الذي تمور به حياتنا، وعسى أن يكون هذا الكتاب شرارة تُضيء الطريق أمام دراساتٍ جادةٍ لأدب العريان الذي يُمثِّل بجلاءٍ مدرسة الأصالة التي حُوربت ولا تزال بسببٍ من تغيِّبها المحافظة على هوية الأمة ومقدراتها الحضارية.

وأخيراً؛ فالشكر واجبٌ للأستاذة الدكتورة تهاني العريان على ما قدمته من عون لإخراج هذا الكتاب، فقد آنستُ منها نبلاً وسخاءً فاقا الحدود، ولولا حرصها على حفظ تراث والدها لحُرمت المكتبة العربية من زادٍ أدبيٍّ ومعرفيٍّ راقٍ تمسُّ الحاجة إليه الآن.

ولا يفوتني أن أشكر الصديقين العزيزين الدكتور حامد المالكي والدكتور أنس الرهوان على ما تفضَّلا به من تقديم العون لي أثناء إعداد هذا الكتاب، والحق أنهما شقيا معي في مقابلة النصوص التي لم أكنْ لأَصلَ إليها لولا معونتهما، كذلك ممتنٌّ للأصدقاء: محمد فيض وبسَّام الشاعر ومحمد بهي؛ على مساعدتهم لي، ليُسدوا إليَّ معروفاً جديداً ينوء به كاهلي، فالله أسأل أن يوفقهم وينفع بعلمهم جميعاً.

والله من وراء القصد

وليد عبدالماجد كساب

البُحيرة - الثلاثاء – 17 رجب 1439 هـ

3 أبريل 2018م

أولاً: في النفس والمجتمع

هذه القصَّةُ (1)

أيتها القُطَيْطَةُ الصغيرة، أتعرفين قَدْرَ الدرس الذي علَّمْتِني إيَّاه؟

سألتُها هذا السؤال وأنا أضُمُّها بيديَّ إلى صدري وأعبثُ بيدي في شعرها الكثِّ الناعم، وهي بين يديَّ وصدري، مستسلمة هادئة قد وجدت الأمان والطمأنينة وراحة النفس، وإن لبعض القطاط نَفْساً ليس مثلها لكثيرٍ من بني آدم...

قطيطةٌ صغيرةٌ لم تتجاوز من العمر ثلاثة أشهر، قد عادت منذ لحظات من رحلةٍ طويلة الأمد بعيدة الشُّقَّة، لو قلتُ إنها تبلغ العشرين كيلو متراً لم أبعد في التقدير، ولم تركب مع ذلك في هـذا الطريق الطويل قطاراً ولا تراماً ولا سيارةً ولم يكن معها على الطريق رائدٌ يهديها، وليس لها بقطْع هذه المسافة عادة، ولا لها على مثلها طاقةٌ ولا صبرٌ، ولكنها مع ذلك قد اهتدتْ، وعرفتْ الطريـق إلى الدار التي فيهـا نشأت، فسارتْ على هدى من إحساسٍ غامضٍ يُسدِّد خطاها حتى بلغت..

ليـت بعض أصحاب المذاهب التي تنكر (الوطنيَّة المحليَّة) وتدعو الناس إلى الانطلاق من حدودها — قد تعلَّموا من منطق هذه القُطيطة الصغيرة مقدار مـا في دعوتهم من ضلالٍ وسَفَهٍ، وبُعدٍ عن الطبيعة البشرية والحيوانية على السواء...

أمَّا أنا فقد تعلَّمتُ... تعلَّمتُ أن (الإحساس بالوطن) هو نوعٌ من التعبير عن حيوية الحيِّ، أقوى مـن تعبير السَّمع والبصر واللمس والشَّمِّ والمذاق، هكذا علَّمتني هـذه القُطيطة الصغيرة التي لم يتجـاوز عمرها على الأرض ثلاثة أشهرٍ!!

***

(1) صحيفة النداء 20 يوليو 1948.

نشــأت أُمُّهــا فِي داري بالمطريــة على بعد اثنــي عشر كيلو مــتراً من محطة القاهــرة – وكانت قطــةً جميلةً وديعةً، بيضــاء الشعر إلا تاجــاً ذهبيّاً يكلِّلُ رأسها وتسيل صُفْرَته على كتفيها، وكانت حبيبة إلى أطفالي، أو كان أطفالي أحبــاء إليها، فلم أكن أراهم إلا حانيــين عليها يُعابثونها وتُعابثهم، أو حانيةً عليهم تَجمشُهُم ويجْمشُونَها.(1)

وزارني صديقي (رفيق) وهو رجلٌ أَلُوفٌ يبذل وُدَّه للحيوان والناس على قدر مشترك، فقد أكسبه مــا تقلَّب فيه من ألوان الحياة وألوان الجهاد إحساساً بالعطــف والمــودة وقوة الائتلاف على كل مَنْ يلقى مــن الضعفاء والمنكوبين، من الناس ومن الحيوان...

ورأى (رفيــق) قطَّتي البيضاء، أو قطة أطفــالي على الصحيح، فاستهداني بعض ولدها حين تلد...

وولــدت القطــة بعد قليل ذكراً وأنثــى، فما هي إلا أن بلغــا سنَّ الفطام حتى حملت إلى (رفيق) قُطيطة...

كانــت القُطيطــة فِي صندوق من الورق المُقوَّى، قــد ثُقبت فِي غطائه وجوانبه ثقــوبٌ عدةٌ ورُبط ربطــاً بخيطٍ متين، وحملتُهُ فِي يدي مــن الدار إلى محطة المطريــة، كأنمــا أحملُ حذاءً جديــداً فِي صندوقه... ولابــدَّ لي أن أصف كل ذلك على قدر ما يكونُ فيه من إملال؛ ليعرف القارئ كيف كان طريقي وأنا أصحبُ القطيطة، وكيف كان طريقُها إليَّ حين عادتْ..

وركبــتُ القطار من محطة المطرية إلى القاهــرة والشمس مصفرَّة للمغيب، وكانــت القُطيطة على امتــداد الطريق تحاول الإفلات منــي فلا تكاد، حتى مزَّقَتِ الصنــدوق، وهَتَكَتِ الحجاب بينها وبين الشمــس، لكني لم أُفلتها...

(1) الجَمْش: هو القَرْص والمُغازلة والمُعابثة.

وبلغتُ محطة القاهرة فاتخذتُ السيارة العامة إلى حيث كان رسول صديقي (رفيق) ينتظر في شارع نوبار، قريباً من مكتب بريد الماليَّة، على بعد بضعة كيلومترات من محطة القاهرة، وأسلمتُ الصندوق الممزَّق قد أطلَّ منه رأس القُطيطة إلى الرسول الذي كان ينتظر مقدمي، ثم تنفَّستُ الصَّعداء، فليس بـي من حاجة إلى أنْ أصف ما أرهقتني هذه القطيطة من العُسر حتى بلغتُ بها حيث أردتُ...

وحملهـا الرسول ومضى، ولعله قد قطع بها بضعة كيلو مترات أخرى قبل أن يبلـغ بها الـدار التي يُراد أن تكون لها وطناً جديـداً في حي السِّيدة زينب... هل لي أن أقول إنني في تلك اللحظة التي أسلمتُ فيها القطيطة إلى حاملها، قـد أحسستُ ببعض إحساس المفارق لشيءٍ يدعو فراقه إلى نوعٍ من الأسف، أنا الذي ذاق من ألوان الأسى لفراق الأحبةِ ما لا يُحتمل معه مزيدٌ من لوعة وحنين... ومضـت ساعتان قبل أن يدقَّ جرس المسرَّة بجانبي وأسمعُ طفلتيَ الكبـيرة تسألني —وكانت تؤثر هذه القُطيطة وتبرها— :هل بلغتَ بالقطيطة يا أبي حيث أردتَ ولم تُفلت منك؟ ألا يمكن أن نراها بعد؟

لك الله يا ابنتي!... أنت أيضاً تُحسِّين ببعض إحساس المفارق لهذه القطيطة التـي لم تعش بينكم إلا بضعـة أشهر، أنتِ التي ذُقـت —كأبيك— من ألوان الفراق المُحزن ما لا طاقة لقلبك الصغير على احتماله؟

وعـاوَدَني إحساسُ المفارق وحنينُ المبعـد الأَسْوَان[1] وأنا أدعـو أطفالي إلى النوم وأَضعُ سمَّاعة المَسَرَّة على حاملها...

ومضـت أيـامٌ، ولقيتُ صديقـي (رفيق) وتقبَّلـت شكره علـى الهدية، وراح يصـف لي القطيطة اللعوب في مأواها الجديد وصفاً لستُ أُنكِرُ أنني وجدتُ

(1) الحزين.

له في نفسي برداً وسلاماً...

ومضت أيامٌ أُخر واستهل رمضان، وكان أطفالي في الشرفة المتصلة بحديقة الـدار يتواثبون على السـلالم، في ساعة من ساعات الليـل الأولى حين رأوا شبحـاً ضئيلاً يتسلل من بـين قضبان السور ويثب إلـى الحديقة، ثم يمشي متمهـلاً حتى يبلغ أولى درجـات السُّلَّم الصاعد إلى الشرفة، فيصعد درجةً درجةً، ثم يقف...

ويقـع نظر طفلتي الكبيرة علـى ذلك الشبح الضئيل قـد استدار على نفسه كالكـرة ونام علـى الدرجة الثالثة من درجات السُّلَّـم، فتصرخ صرخةً فيها لونٌ من ألوان الفزع وألوانٌ من الغِبْطَة..

قُطيطتي!!

ويتواثـب أهل الدار جميعاً حيث تشـير الطفلة، فإذا قطيطة رفيق قد عادت إلـى وطنهـا وقد أخذها النوم علـى درجات السُّلَّم مطمئنـة اطمئنان الآيب إلـى أهله بعد طول السفارة، وتحضرُ إليها أمها فيمن حضر من أهل الدار، فتقـتربَ منهـا وهي تموءُ مواءً عجيباً لم يسمع أحدٌ مـن أهل الدار مثله من مواء القطاط...

وتفتح القُطيطة عينها فترى أمها فتقبل عليها وتمد فمها إلى ثديها ترضعه، ثـم تستغرق القُطيطة وأمها في ثباتٍ... لولا زيـاط الأطفال من حولها لهذا الحادث العجيب.

وأعودُ من سهرتي قبيل السحور فإذا الدار كلها مستيقظةٌ، الكبار والصغار، الخـدم والسـادة، قـد تحلَّقوا جميعاً حـول القطـة وابنتها يتسابقـون فيما يقدمون إليها من تحية القدوم... لحمٌ... لبنٌ... وفاكهةٌ أيضاً...

وشاركـتُ في الاحتفـال بهـذه القادمة الصغيرة وفـى نفسي ريـبٌ... أهذه

هـــي؟ فكيف قطعــت الطريق من حي السيدة زينب مــن أقصى الجنوب من القاهرة، إلى المطريَّة في أقصى الشمال من الضَّاحية!

إنَّ بينها وبين المطرية قطاراً وسيارة ومشواراً طويلاً آخر لا يقطعه قطارٌ ولا سيارةٌ فكيف عادت؟ ومن هداها الطريق وأعانها على السُّرَى الشَّاقِّ؟

***

أسئلــة لا أكادُ أجـدُ لها جواباً... فلولا أنــه شيءٌ أراهُ بعينـــي وأسمعُهُ بأذني لأنكرتُ أنَّ شيئاً من ذلك قد كان... أو لعلِّي أنكرتُ فيما بيني وبين نفسي ما تــراه عيناي وتسمعه أُذناي وكذَّبت الصِّغار والكبار من أهل الدار وقلتُ إنها قطةٌ تُشبهها...

وكانــت القُطيطة على مرمــى عيني من ضحى اليوم التــالي حين دقَّ جرس المَسَرَّة فرفعتُ السماعة فإذا صديقي (رفيق) هو الذي يتكلم.

وسألتُــهُ عن القطيطة؛ فأجابني: لقد اختفتْ عن الـدار منذ أيام ثلاثة فلم نقــف لهــا على أثــرٍ! إذن فهي هي، فليُفلســف من يُفلسف ويُنكــرً من يُنكر، فليس يعنيني من فلسفته ولا من إنكاره شيءٌ...

وضممــتُ القُطيطــة إلى صدري وأنــا أسألُها سـؤالي ذاك؛ ولكني لم أسمع جواباً...

إننـــي أنا وحدي الذي يستطيــع أن يصف قدر هذا الدرس الذي علَّمتني إيَّاه هــذه القُطيطة، وما أجدر كثيراً من أهل العلم ومن أهل السياسة أن يتعلموا مثلــه.! ولكني أعــود فأسأل: كيف عادت؟ وبم اهتــدت؟ ومن كان رائدها في ذلك الطريق الطويل الشاق؟ وبأي إحساسٍ علمتْ أنَّ لها وطناً وأنَّ من حقِّها أن تعودَ إلى ذلك الوطن؟

أهي حاسةٌ فوق الحواس الخمس التي يهتدي بها البشر؟

أم هو إلهامٌ من وراء الحسِّ الظَّاهر ألهمها إياه بارئ الحيوان والناس؟

أم هو كما يقول المُولعون بالتعليل إشعاعُ المكان يمتدُّ كما يمتدُّ تيار الكهرباء أو جاذبية المغناطيس في مجاله المحدود فيهديه تتجاذبُ الكائنات ويتقارب البُعداء؟..

أمَّا أنا فلم أجد في هذا الذي رأيتُ وسمعتُ إلا قبساً من برهان ربي..

***

مِنْ ذكرياتِ شمِّ النَّسِيمِ: يومٌ لا أنساهُ [1]

كان ذلك في طنطا منذ ستِّ سنين، وكنَّا جماعةً من مُدرِّسي اللغة العربية قد جمعتنا على الوداد أواصر لا تنفصم، فما نفترقُ إلا على ميعاد. وكان لنا من دار صديقنا (أمين) ندوةٌ نختلفُ إليها في مواعيد رتيبة، نقرأ ونتزوَّد ونناقش الجديد من مسائل العلم والأدب، لا يكاد يفوتنا شيءٌ مما تخرج المكتبة العربية؛ فإذا التقينا فثمة مذاكرة أو مناظرة أو رأيٌّ جديدٌ؛ وإذا افترقنا فلكي يخلو كلٌّ منا إلى نفسه وقتاً يتهيَّأ فيه لموضوع يطرحه على الجماعة في الاجتماع التالي؛ وما كانت الفترة بين الاجتماعين تزيد على يومين اثنين...

كنَّا نعيش عيش الرَّهَابين قد فرغوا من الدنيا وأخلصوا أنفسهم لما هم فيه؛ فما لهم من دنياهم إلا التسبيح والعبادة، وما لشيءٍ عليهم من سلطانٍ إلا ما اختاروا لأنفسهم!

وجاء شمُّ النسيم فقال قائل منا: أين تقترحون أن نقضي ذلك اليوم؟

وما اختلفنا على الرأي، فما كان يعنينا أين نقضي يومنا، إذْ كان كل ما يعنينا أن نكون معاً، نعمل ما نعمل على النهج الذي فرضناه على أنفسنا منذ تعارفنا: أي نقرأ ونتذاكر!

(1) صحيفة النداء 20 يوليو 1948.

واجتمع رأينا على أن نخرج في ذلك اليوم إلى ضاحيةٍ قريبةٍ من المدينة لا أسمِّيها، حيث نقضي يومنا هناك في مصلًّى كبيرٍ يعرفه بعض أصحابنا على حافة ترعةٍ من تلك الضاحية...

والتقينا على موعدٍ قبيل الشروق وما أفطرنا بعد، فاتخذنا طريقنا بين الحقول الناضرة إلى حيث نريد، يحمل كلٌّ منا في يده أو تحت إبطه ما يقدر عليه من طعامٍ وفاكهةٍ وحلوى، ومن دفاتر يقدِّر أن سيقرأ منها ما يقرأ في ظل شجرة الصَّفصاف الحانية على ذلك المصلى... ولم يغب عنا تدبير الماء الرائق، فحملنا ما يكفينا في زجاجاتٍ بأيدينا، ولم يتخلَّف عن الجماعة في ذلك اليوم إلا صديقنا الذي اختار لنا هذه الرحلة، لأنه آثر أن يسافر لزيارة خطيبته في القاهرة، وقد أراد الله لنا وأراد له...

سارت الجماعة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، نتجاذب أطراف الحديث في صفاء وانشراح؛ لا يكاد يخطر في بالنا شيءٌ إلا ما يجرى على ألسنتنا من فكاهةٍ أو حديثٍ مرتجلٍ...

وخلَّفنا المدينة وراءنا، فما تقع عيوننا إلا على زرعٍ وماءٍ، وقطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم صافيةً تترقرق، وأشعة الصُّبح تداعب عِشاش الطيور في أعالي الشجر، والنسيم الرَّقراق يهمس في آذاننا بشرى ميلاد يومٍ جديدٍ من أيام الربيع الضاحك!

واستخفَّنا الطرب؛ فأخذنا نمزح لاهين عابثين، وتخفَّفْنا من بعض ما كنا نحمل على كواهلنا من وقار، وانبعثت فينا روحٌ جديدةٌ لم يكن لنا بها عهدٌ في أنفسنا قبْل، فإذا نحن ناسٌ كالناس حين تصفو لهم الحياة ويعتدل الجو...

ومددتُ نظري إلى بعيدٍ، فإذا المرحوم الرافعي على مدِّ البصر يمشي على

حافة قناة بين زرعين يتنسَّم نسيم الصباح، شأنَهُ كل يوم[1]؛ قلتُ لصحابتي: وهـذا رفيقٌ مؤنسٌ! ثم أقبلتُ عليه أسأله أن يرافقنا؛ فقال: وددتُ؛ ولكن في غير هذا اليوم... أسأل الله لكم العافية!

***

ومضينـا على وجهنا نمزح ونضحك لا يعنينا مـن أمر شيء؛ وأغفلْنا ما كنا نلتـزم من تزمُّـت الشيوخ ووقار المعلمـين؛ وكان صديقنـا (م) أسرعَنا إلى التخفُّـف من وقاره علـى أنه أكبرنا سنّاً؛ فلما ثقل عليـه ما يحمل من طعام وماءٍ وكتـابٍ، خلع المعطف الأبيض عن كتفيه، فبسطـه على الأرض، فألقىً عليـه ما كان يحمل، فَصَرَّه فيه وحمله على كاهله. وراقتْ فكرتُه زميلاً منا، فألقى إليه بما كان يحمل كذلك، وتعاوَنَّا على حمل المعطف من طرفيه وعليه ما عليه كما يبسط بساط الرحمة في جنائز بعض الموتى...

ورأينـا بابـاً جديداً إلـى المزاح، فألقـى كل منا في المعطف بمـا كان يحمل، وتركنـا لزميلينـا أن يحملا وحدهما ما كنا نحمل جميعـاً، لنفرغ إلى المزاح والسخرية والضحك!

ودنونـا من المكان الـذي نريد؛ وبدَتْ لنا القرية على مقربـة؛ فمررنا بنسوةٍ يمـلأن جُرَّاتهن من الترعة على مورد قريب مـن المُصَلَّى الذي نهدف إليه؛ فمـا كِدنَ يَرَيْنَنَا حتى استهواهن المنظـر، فقذفن إلينا بعض نكاتٍ مازحاتٍ في مرحٍ، أو عابثاتٍ في دلال!

أمَّـا طائفةٌ منـا فعادَهم وقار المعلمـين وتزمُّت الشيوخ، فطأطـأوا رؤوسهم يُهرولـون في خجلٍ إلى حيث يريدون؛ وأما طائفةٌ فأجابت نكتةً بنكتةٍ ونادرةً بنادرةٍ...

(1) انظر كتابنا (حياة الرافعي) صـ 334 (العريان).

وبَلَغْنـا المصلى وتركنـا النساء حيث كـنَّ... وخلعنا أحذيتنـا، وتخفَّفنا من بعض ثيابنا، واتخذنا من أغصـان شجرة الصَّفصاف مشْجباً[1] نعلق عليه من طرابيشنا ومن ثيابنا؛ وافترشنا الأرض وبسطنا السُّفرة نأكل..

وجلس اثنـان يُداولان الـرأي في مسألة، وانتحى اثنان مـن المصلى ناحية، وتناول خامسٌ كتاباً بين يديه، وتوسَّد سادسٌ ذراعه، واشتغل كلٌّ بشأنٍ...

وخلـع (زهران) طربوشه، فبدت صلعتـه مصقولةً لامعةً تحت الشمس؛ فما تعرف أين ينتهي جبينه وأين يبدأ رأسه... وكانت مادة حديثٍ...

ومـرَّ بنـا طائفةٌ من الفلاحين؛ فنظـروا نظرةً ثم مضـوا يتهامسون، ووقف غلامـان يشـيران إلينا مـن بعيدٍ، وتجاوزنـا طفلان يُلقـي أحدهما في أذن صاحبه حديثاً يضحك منه...

وتثاءب زهرانُ وتمطَّى وقال لي: هل لك أن تسابقني عَدْواً على هذا الطريق؟ فأجبتُهُ إلى ما دعا... ولم أكنْ أعلم أن ثمة شراً يتربص!

وأخذنـا نعدو ليس في أرجلنا نعلٌ تقينا وخْزَاتِ الحصى، ورأسي عارٍ إلا من الشَّعـر، ورأسه عارٍ من كل شيءٍ، وترامت إلينـا كلماتٌ ساخرةٌ وعباراتٌ لم تألفهـا أذناي؛ فنال مني أن يسخـر الفلاحون منِّي ومن صديقي... وأتممنا في السبـاق دورةً؛ وهممـتُ أن أجلس لأستريـح، ولكنَّ صديقـي أَبَاهَا عليَّ؛ وعُدنا إلى السباق، وعادتْ كلمات السَّاخرين تسكُّ مسمعي!

وقلـتُ لصديقـي: تعـال نَعُدْ إلـى إخواننا؛ ولكنَّـه -وقد كان رأسـه موضوع السخرية ومحور حديث الساخرين- أبى إلا أن يأخذ بحقِّه!

إنَّ الفلاحـين في مصر لأكرم نفساً وأرحب صدراً من ذلك؛ فما كان بهم أنْ يسخـروا منَّا ولكنهم أرادوها تحرُّشاً وكيداً... تـرى ماذا ظنُّوا بنا فحملونا

(1) ما يُعلَّق عليه الثِّياب ونحوه، وتُجمع على مشاجِب.

على ما لم نكن نقصد إليه؟

وكان ثمـة غلام في يده مِنْجَلٌ يحشُّ به البرسيم، وعلى شفتيه كلامٌ، فقصد إليـه صاحبي يعتب عليه مَعْتَبَةً؛ فمـا كانت إلا كلمة وجوابها ثم رأيتُ المنجل المسنـون يحزُّ في يد صاحبـي فيسيل دمٌ... وتجاوبـت في الفضاء صيحتان، ثم سال الـوادي فتياناً وكهولةً مسلَّحين بالعِصِيِّ والهـرَّاوات والشرُّ يلمع في عيونهم!

وأُحيط بنا؛ فما وجدنا سبيلاً إلى الخلاص، واشتجرت العِصِيُّ على رؤوسنا وأبداننـا فـلا نجد ما نحتمي بـه إلا أن نعقد من أيدينا علـى رؤوسنا مجنّةً تقينـا ضربةً قاتلةً؛ وحاولنا الكلام فما أطقنـا، ولو أطقنا لما وجدنا في هذا الجيش الثائر مَنْ يسمع؛ وأسلمنا أرجلنا للريح نعدو ونتعثر وما تزال العِصِيُّ تنال من أبداننا وهم يحصبون أرجلنا بالحصى والحجارة...

ورأى أصحابنـا على مبعدة ما نالنا فخفُّوا إلينا سراعاً حفاةً عراةَ الرؤوس؛ فما كان سعيهم إلا لينالوا نصيبهم من هذه المعركة الدامية؛ معركة لم يكن لنـا فيهـا يدٌ ولا لسانٌ وما نعرف لها من سببٍ! وأسرع من أسرع منَّا إلى دار العمدة يستعينه على تهدئة هذه الفتنة؛ فأغلق دونه بابه...

وما كان لنا من وسيلة للدفاع عن أنفسنا غير الهرب، وهيهات...!

وبلغنـا المُصلَّى عدْواً فقذفنا بأنفسنا بـين متاعنا نلتمس الحماية والأمن في جوار الله فما أجدى ذلك علينا. واشتدتْ هجمة الفلاحين علينا، فإذا نحن محصورون بين نارين: العدوُّ من أمامنا والبحر من ورائنا!

وأسرع واحدٌ منا إلى المتاع يجمعه؛ فصاح منهم صائحٌ: هذه هي الزجاجات! وقال آخر: يشربون الخمر في بيت الله! وقال ثالثٌ: ويلٌ لهؤلاء الفجرة!

وفي هـذه الحُمَّى الثائرة ثاب إليَّ عقلي ففهمت، فابتسمت، وإنَّ الدم ليسيل

من يدي ومن جبيني! لقد انكشف السِّر...

وما أدري ماذا كان بعد؛ فقد سقطتُ على أرض المصلَّى فاقد الرُّشد!

وأَفَقْتُ بعد قليل، وإنَّ الماء الذي كانوا ينضحون به وجهي لَيصل إلى كل جزءٍ من جسدي، وكان شيخ البلد جالساً يحقِّق ويُدقِّق وقد أحاط به أصحابي مكلومين ملطَّخي الثياب بالدم والوحل كأنهم أشلاء معركةٍ!...

وعَرَفَتْ القرية كلها بما كان، فخفَّ إلينا شيوخها وأعيانها معتذرين يُحاولون أن يُزيلوا من أنفسنا ما كان من أثر هذه المعركة المشْؤومة!

وقال العمدة معتذراً: أحسبُ أن أثرها سيزول من أنفسكم بعد إذْ عرفتم ما كان من ظنِّهم بكم، وإن قريتنا لكريمة مضيافة؛ فما استفزَّ أشرارَها إلى ما كان إلا اللعينُ الذي زوَّر عليهم الخبر بأنكم تشربون الخمر في مُصَلَّى القرية...!

وما زال بنا العمدة وحاشيته حتى صَفَحنا وتناسينا؛ ولكننا على ما بنا لم نطق بقاءً في القرية بعد، فحملنا متاعنا وفارقْنا القرية قبل أن ينتصف النهار، يشيعنا بالاعتذار من شيَّعنا من أهلها وما مِنَّا أحدٌ إلا في وجهه أثرٌ بادٍ يُشير إلى ما كان!

فلما صرنا على مقربةٍ من المدينة، وقد عاد المشيِّعون من أهل القرية أحسسنا التعب، فجلسنا في ظل شجرة على الطريق نستريح، وهممنا أن نبسط ما كان معنا من طعام شهيٍّ لنأكل، فما وجدنا في أنفسنا رغبةً، فتركناه لجماعةٍ من القرويين لم نتتفع منه بشيء!

وأخذنا نسترجع ما فات، فتعاهدنا على الكتمان حتى لا يعلم أحد بما نالنا، فإنَّ لنا في المدينة لسمعة نحرص عليها أن تَنُوشَها ألسنة السوء بالباطل؛ ثم أصلحنا من ثيابنا ما استطعنا واستأنفنا المسير إلى بيوتنا فبلغنا عند

الأصيـل... وقضيتُ في فراشـي بضع عشرة ساعةً أتلـوّى من الألم لا يحسُّ أحدٌ ما بي...

وفي الصباح توكَّأت على نفسي إلى المدرسة لا تكاد تحملني قدماي، في غيظٍ مكظوم وألم صامـت. ولقيتُ في المدرسة بعض رفقائي في الرحلة المشؤومة؛ فأكَّدنا ما تعاهدنا عليه أمس من كتمان ما كان...

وسألنـي ناظـر المدرسة عـن بعض ما يُنكر مـن حالي؛ فتعلَّلتُ بعلَّـةٍ، وسأل زميلي فما أخطأ الاعتذار!

وتحدَّثتُ إلى سائر زملائي في مدارسهم بالمسرَّة[1] لأطمئن عليهم فأجابوني. وانتصـف النهار، وإذا داعٍ يدعوني من حجرة الدراسة إلى لقاء جماعة من الـزُّوَّار، فذهبـت إليهم حيث كانوا فإذا عمدة القريـة وجماعة من حاشيته وبينهم زميلاي وناظر المدرسة، وابتسمتُ وابتسموا، وقال العمدة: لقد جئتُ لأكرِّر اعتذاري وأسألكم الصَّفح!

ونـال مني الغيظ، فقلت: لقد كنـت صفحتُ أمس، أما اليـوم فلا، ما دمتم أذعتموهـا بعـد كتمـانٍ! ولم أستطـع أن أغالب الضحك جوابـاً على فكاهة رائقـة من ناظـر المدرسة. وعاد العمـدة الغبيُّ يقول: لقد مـررتُ بإخوانك جميعـاً فاعتذرت إليهم في مدارسهم. إنني منذ الصباح أطوف المدينة على قدمـيَّ ألتمس الوسيلة إلى رضاكم؛ ولكنِّـي لم أذهب بعد إلى الأستاذ فلان المدرس بالمعهد الديني، وها أنذا ذاهبٌ إليه!

قلت: فلان المدرس بالمعهد الديني؟ حسبك معذرةً؛ سأنوب عنك في الاعتذار إليه، وقد صفحتُ وصفح إخواني!

ومـا جاء المساء، حتى كان الخبر علـى كل لسان في المدينة؛ فقائل: أخزاهم

(1) الهاتف.

الله؛ لقد انكشف مستورهم!، وآخر يعقِّب: يا شيخ؛ حسبهم ما نالهم!

***

ولقيتُ الرافعي بعدها فقال لي شامتاً: هو ذلك؛ إنَّ الشَّرَّ ليتربَّص بالمسلم الذي يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المُحرَّم! هذه وصية أبٍ! وما ذقت حُلواً ولا مُراً مرَّةً واحدةً في يوم شمِّ النسيم من بعد!

***

عِجْلُ المَعْصَرَةِ (1)

الأربعاء 12 مارس سنة 1919، كنتُ يومئذ في الثانية عشرة، ولكنَّ شبابي بدأ منذ تلك اللحظة، ولعلي لا أزالُ شابّاً حتى اليوم على رغم الأربعين وقد جاوزتها، فإنَّ القطرة الدافئة التي اندفعت في عروقي في ذلك اليوم لم يزل يجيش بها دمي ويخفق فؤادي، فأنا لذلك ثائرٌ لا يكاد يبرد دمي أو تنطفئ الشُّعل الحمراء التي تتراقص أمام عيني كلما هاجني الغضبُ...

فتى ضئيلُ الجسم قصيرُ القامة لا يتجاوز طوله بضعة أشبارٍ، ألبسوه قَبَاءَ الشيوخِ، ووضعوا على رأسه عمامة، وذهبوا به إلى (المعهد) ليكون بعد عدد من السنين يطول أو يقصر شيخاً كأبيه، يُلتمسُ عنده العلم والفُتيا وحدُّ الحلال والحرام..

وكان هذا الفتى في السنة الثانية الابتدائية بمعهد طنطا، حين استمعَ إلى أول نبأ من أنباء الثورة، وأحسب ذلك كان في يوم الاثنين 10 مارس أو الثلاثاء 11، وكان في فرقته طائفةٌ من العماليق والطلاب الكبار لا يزالون يتلمَّسون أسباب العراك ليظهروا ألواناً من بطولاتهم التي تمجد تمجيداً عظيماً في الريف حيث كانت نشأتهم، وكان صاحبنا هذا يخشاهم لذلك،

(1) صحيفة النداء 20 يوليو 1948.

فلا يكاد يقرب مجلسهم أو يشاركهم في حديث.

وكان أشرسهم طبعاً وأقواهم لساناً ويداً وأشدهم إيذاءً وكيداً لمن يعانده هو الطالب الدقهلي (الشيخ سيد أحمد)، وأحسبُهُ كان من المعصرة مركز ميت غمر، ذكرتُ ذلك من تلقيب شيخنا له في تلك الأيام بلقب (عِجْل المَعْصَرة)، فلما كان يوم الاثنين أو الثلاثاء وقف الشيخ سيد أحمد في الحجرة بين الطلاب يقول: هل رأيتم؟ هل سمعتم؟ لقد هجم الإنجليز على جامع الأزهر يوم الجمعة بالمدافع فقتلوا المصلين، وهدموا جانباً من الجامع العتيق.

وثارت نفس الفتى؛ بل ثارت نفوس الطلاب جميعاً، ومضوا في حديث طويلٍ لم يشاركهم الفتى شيئاً منه، فلما كان صباح الأربعاء، جاء طلابٌ المعهد ومع كلٍّ منهم شيءٌ غير عاديٍّ، عرفتُ ذلك من جاري الشيخ محمود الشافعي، فقد كان معه سكين مطبخ مُثَلَّم الأطراف.[1]

ومضتْ ساعةٌ قبل أن يسمع الطلاب صيحة كان متفقاً عليها فيما يبدو، فلم تكد تطرق آذانهم حتى زَاطُوا زياطاً شديداً، ووثبوا عن مقاعدهم كأنما نفضتهم نفضاً، وكان المرحوم الشيخ (حسين والي) —وكيل المعهد— رجلاً مهيباً قاسياً يُؤْثِرُ النِّظَام على كلِّ شيء، ولكن هيبته وقسوته وإيثاره النظام لم تُجْدِ شيئاً دون تدفُّق التيار، فوثب الطلاب من النوافذ إلى شارع (بلنط)[2]، ووثب معهم فتىً لا يزيد طوله على بضعة أشبارٍ، لم يجرب قبلها قوته على الوثب من النوافذ إلى الطريق والسير في المواكب الحاشدة.

كان أبوه شيخاً قد جاوز المائة ولزم الدار من الشيخوخة، وكان هو أكبر بنيه، فكان من إسرافِ أهله في العناية به، ضعيف البَدَنِ، سريع الوَهَنِ، لا

(1) غيرُ حاد، ويُقال له في العامية المصرية (تلم).

(2) شارع المعهد الأحمدي بطنطا آنذاك.

انبعاث له إلى ما ينبعث له الفتيان في مثل سنِّه من المغامرات وألوان الجرأة، فلم يكد يلقي بنفسه من النافذة حتى افترش الأرض وطارت عمامته عن رأسه وانتثرت كتبه، فخفَّ عجلان إلى أشيائه يجمعها حتى لا يكون ضياعُ شيء منها نميمةً عليه إلى أهله الذين يخافون عليه مَرَّ النسيم، فيعنفوه تعنيفاً لا يقوى على احتماله...

وتدفَّق التيار في شوارع المدينة يخترقها من شمالها إلى الجنوب، قد انضم أفواجٌ من الطلاب ومن الشَّعب، حتى كأنَّ المدينة كلها قد خرجتْ إلى الشوارع في ذلك اليوم، هاتفةً بما يهتفُ به هؤلاء الطلاب.

لم يفهم الفتى من ألفاظ الهتاف التي كانت أصداؤها تتردَّد بين أربعة أقطار المدينة إلا كلمة (الإنجليز)؛ إنه يعرف هذا الصنف من الخلق ويتمنَّى أن يموت كله، زغلول، رشدي، والاستقلال، فلم يكن لها في ذهنه معنى محدودٌ، وإن كان قد فهم أنَّ زغلولاً ورشدي لابد أن يكونا رجلين عظيمين يستحقان أن يهتف الناس باسميهما ويدعون لهما بالحياة، وأمَّا كلمة الاستقلال فقد خمَّن تخميناً – بعد مجهودٍ كبيرٍ – أن معناها لابد أن يكون قريباً من معنى الحرية التي يهتف بها هؤلاء المتظاهرون ويقرنونها إلى كلمة الاستقلال.

وبلغ الموكب بعد وقت طويل، شمال المدينة، حيث كانت المدرسة الثانوية، ومدرسة الصنائع وبيت الباشا (المدير) ثم كرَّ الموكب راجعاً إلى حيث بدأ، ولا يزال صدى هتافه يتردَّد بين أقطار المدينة الأربعة.

وجاوز الموكب ديوان المديرية إلى المحطة، حيث كان مفهوماً أن انفضاضه هناك، ولكن شيئاً ما قد حدث، فقد برز من بين المتظاهرين طائفةٌ من الطلاب الكبار يحاولون تعديل الصفوف، وردَّ الصِّغار إلى المؤخرة، وتسوية الموكب من جانبيه..

وعــزَّ علــى الفتــى النحيل القصــير أن يُبعد عــن المقدمة ويُردَّ إلــى الوراء، فغضــب وتمرَّد وأصرَّ علــى أن يكون في الصفِّ الأول... ولكن المُنظِّمين كانوا من الحزم بحيث لم يأبهوا لغضبه، وكان صديقه المرحوم الشيخ (أبو قورة) فتى عريض الألواح مشبوح العظام[1]، جسيماً، فارهاً، يظنُّ من يرى جسامته وطوله أنَّه في السنة الرابعة.. ولم يزل في السنة الأولى بعدُ.. وكان أبوه تاجراً وجيهــاً في المدينة، له بين أهل الرياسة مقامٌ، وكان صديقاً لصاحبنا لا يكاد يفارقــه، إذ كان بيتاهما متجاورين، فقــال لصاحبه متباهياً: لقد اختاروني للصــف الأول فاحملْ عنِّي هذه الكتب حتى نلتقي بعد الموكب؛ فحملها الفتى ومشى إلى جانب الموكب، كأنه امتدادٌ للصفِّ الأول، وعيناه تتبع صديقه (أبا قورة) في موضعه من الصفِّ باغتباطٍ وإعجاب.

وبلــغ الموكــبُ ميــدان المحطــة، وكان ثمــة صــفٌّ مــن الجنــود الإنجليز قد اعترضــوا طريق الموكب وصوَّبوا بنادقهم، وإلى الجانب الأيسر كانت سيارة عسكريــة واقفة قد نُصب عليها شيء يشبه البندقية يرتكز على دعامة ذات ثلاثــة أرجل، كالدعامة التي تستند عليها بعض آلات التصوير، كان منظر الإنجليــز يبعث على الرعب، وكانت البنادق في أيديهــم مصوَّبةً إلى صدور الشُّبَّان في موقف تأهُّب، وارتعد الفتى ورعب رعباً شديداً، ولكن حوذيّاً كان علــى مقربــةٍ منه قال له مُطَمْئِناً: أتظنُّ أنَّ مع هــؤلاء الإنجليز من الذخيرة ما يكفيهم ساعة؟ فأثلج صدر الفتى وثاب إليه الاطمئنان، فكأنما خيل إليه أنَّ المعركة ستمتد ساعات، وكأنما خُيِّل للفتى أنَّ الموكب قد أبطأ في الزحف، وأنَّ من حقِّه أن يهيب به ليتقدم ويفتك بهؤلاء الأعداء الذين هبطوا المدينة لغير حاجةٍ وبغير حقٍّ، ولكنه قبل أن يفتح فمه، ملأت أذنيه فرقعاتٌ متواليةٌ منتظمةٌ كنقر الأصابع على طست من الصفيح، ونظر فإذا نيران تنبعث من

(1) عريضُها.

فوهات البنادق وإذا كتلٌ من اللحم قد تراكم بعضها فوق بعضٍ في الميدان...

وسقط الفتى على الأرض مرعوباً، وطارت عمامته عن رأسه وانتثرت كتبه، ثم نهض معجلاً فجرى بأسرع مما يستطيع متخذاً طريقه نحو محطة (الدلتا) وسمع صوتاً من خلفه يناديه، فإذا الحوذيُّ الذي كان واقفاً إلى جانبه في الميدان يحمل إليه كتبه وعمامته، وكان قد غضَّ عنهما، فتناولهما فرحاً وهَمَّ أن يستأنف عَدْوَه، ولكنَّ الحوذي أمسك به.

– قف يا ولد، إنَّ الخطر يجثم حيث تقصد، فإنَّ المستشفى ثمة وحوله عشراتٌ من الجند في أيديهم البنادق يطلقونها.

وتحيَّر الفتى ودار بنظره حواليه، ثم اتخذ طريقاً آخر ضيقاً ينتهي إلى ديوان المديرية، لكنه لم يكد يصل إلى هناك حتى رأى الأفواج ترتدُّ إليه عن طريقها مذعورةً، ولا زال صوت الرصاص يدوي متتابعاً منتظماً كالنقر على الصفيح، وكان ذلك صوت المدافع الرشاشة المرتكزة على دعائمها فوق السيارات العسكرية.

وتحيَّر الفتى مرةً أخرى وعاد ينظر حواليه قلقاً، لم يكن من الشجاعة بحيث يسوغُ لي أن أقول إنه لم يكن خائفاً من الموت؛ ولكنه لم يكن خائفاً من الموت حقّاً، وإنما كان يخاف شيئاً آخر قد شغله عن التفكير في الموت، كان يخاف أن يفتقده أهله فيعرفوا أنه كان في المظاهرة، ويا لها من جريمة...

نعم، كان أبوه في صدر أيامه من المجاهدين، وكان له تاريخٌ في الثورة العرابية، كان مدرساً بالأزهر وشارك فيها مشاركةً جعلت اسمه في الصحيفة الأولى من سجل المحكوم عليهم بالموت بعد إخفاق الثورة، وقد حمله هذا على الفرار من القاهرة إلى طنطا مشياً على قدمه، فآوى إليها في دار بعض شيوخه حتى عُفي عنه.

ولكنَّ هذا الثائر المجاهد القديم قد جاوز اليوم مائةً من عمره، لا أقول إن

حميَّتَـهُ قد بَـرَدَتْ؛ ولكنه كان يحب ولده ويُؤْثِـرُهُ، إنَّ هذا الغلام (الذي) لم يرشـد هو أكـبر بنيه، فما أحراه لـو علم أنه تعرَّض لبعض هذا الخطر أن يعنفـه تعنيفـاً لا طاقة له باحتماله، أو.. أو مـاذا؟ إن الجريمة لأكبر من أن يكون عقابها التعنيف.

وامتـلأ صدر الفتى رعبـاً وهمّاً، وهو لم يزل –إلى جانـب ديوان المديرية– يتلفَّت حواليه يلتمس سبيلاً يُوصِلُهُ إلى أهله...

ومرَّت من جانبه في تلك اللحظة عربة نقل يَجُرُّها بعض الشُّبَّان وعليها بعض كتـل اللحم... ما أفظع ما رأى، هذه فخذٌ تتدلَّى من جانب العربة قد شقَّتها الرصاصـة شقّاً مستطيلاً لا يكاد يعـرف من يراها أنها كانت فخذاً.. وهذه كومـةٌ من لحم إنسانٍ لا يـزال ملتصقاً بها الرأس دلالـةً على أن ذلك لحمٌ بشريٌّ... وهذه ذراعٌ... وهذا رأسٌ، وذلك بطنٌ مبقورٌ قد تدلَّت أحشاؤه.

أولئك بعض شهداء المعركة يحملهم إخوانهم على عربات إلى المستشفى، يا ويلتا، فقد كان هناك قتلى إذن من إخوانه الكبار؟

كـم عددهم؟ ليس يدري أحدٌ، فقد يكونون عشرات، وقد يكونون مئات، وقد يبلغـون أضعاف ما يتصـور، وكم إنجليزيّاً أُصيـبَ في المعركة؟ لا أحدَ. وما يـزال الرصاص يدوي، وهمَّ الفتـى أن يعود إلى الميدان يحـاول ثأراً لهؤلاء القتلـى، ونسـي أباه الشيـخ، ونسي أمـه، لقد بـدأ شبابه من يومئـذٍ وشعر بتبعاتـه، فلولا الجموع المرتدة من حيـث كان يقصد أن يعود لعاد، ثم عرف طريقـاً ملتوياً يـؤدي به إلى الدار فسلكه، ووصـل وكانت في عمامته بقعة... وكانت تحت إبطه كتبه وكتب صديقه (أبي قورة).

– مـا هـذه البقعـة في عمامتـك؟ وتلجلج الفتـى قليلاً ثم خـرج من الحرج بالكذب..

– كنت أجري فزعاً فسقطتُ لم أر شيئاً، ولم أشارك في شيء، وتذكَّر صديقه

(أبا قــورة) وخاف أن يفشي سرَّه لأهله، ولكن (أبا قورة) لم يكن مستطيعاً أن يُفشــي سرَّ أحد ولا سرَّ نفسه، لقد أغلــق فمه إلى الأبد لا ينطق، أصابته أربع رصاصات في أربعة مقاتل، فمات لم يلفظ حرفاً أو تخرج من بين شفتيه صيحــةٌ، علم الفتى بذلك في المساء، فثقل على ضميره ما علم، ولاذ بخلوته يبكــي، ثم تذكَّر كتب صديقــه الشهيد، فلم يدر ماذا يصنع بها، أيردُّها إلى أهلــه، شيءٌ لا يُطاق، أيحتفظ بها لنفسه؟ ذلك غير جائزٍ، ماذا يفعل إذن؟
- يتصدَّق بها على طالب علمٍ فقيرٍ.. وكذلك كان.

واحتبســه أهلــه في الدار منذ ذلــك اليوم، فقد كانت الحــوادث المتتابعة في المدينــة تفرض على أكــثر الناس أن يلــوذوا بدورهم ما قــدروا على ذلك، علــى أن الأنبــاء كانت تصل إليه حينــاً بعد حينٍ فتنفعل بهــا نفسه، ويودُّ لو استطاع الإفلات من الحصار المضروب عليه ليشارك في الثورة ويحاول ثأراً لصديقه (أبي قورة) وأصدقاء آخرين.

ولمَّا عــاد إلى المعهد بعد أن انتهت أشهر العطلة، كانت فرقته ناقصة العدد، فقــد مات في معركة 12 مارس ثلاثــةٌ من الطلاب، وبُترت رِجل طالبٍ رابعٍ، هو سيد أحمد (عجل المعصرة) الذي لم يفارقه هذا اللقب حتى فارق المعهدَ وانتهى من دراسته، وكانت له رجلٌ من خشب بدل رجله المكسورة، وقد انتهت بحلقة من الحديد لا يزال يدبُّ بها على البلاط ذاهباً وآيباً فيعرف الطلاب أن سيــدً أحمد قادمٌ وإنْ لم يــروه، وكانوا يخافونه خوفــاً شديداً، ويتوقونه، فإنــه –علــى رغم مــا ناله– ظَــلَّ شرس الطَّبع، قــويَّ اللســان واليد، شديد الإيــذاء والكيد، على أنَّه زاد –بعد عاهته تلك– سلاحاً جديداً، فكان يخلع رجله ويضرب بها أو يقذفها، وكانوا لايزالون يُجدِّدون بلاط المعهد فترةً بعد فــترة ويقــول له المُبلِّط الذي لا يزال يُدّعَى لتجديــد البلاط: بارك الله فيك يــا شيخ سيــد أحمد، ورزقك ورزق بك.. فيجري إليــه وثباً على رِجلٍ واحدةٍ ويقذفه بالأخرى..

علـى هـذه المناظر بـدأ شبابي، ولا زلـتُ منذ ذلـك التاريخ أُحسُّ القطرة الدافئة التي اندفقـت في عروقي يومئذ، جياشة تدفعني إلى الثورة أبداً فلا يكاد يبرد دمي أو تنطفئ الشُعَل الحمراء المتراقصة أمام عيني. ليت شعري هـل رأى أحدٌ شيئاً من مشاهد تلك الثورة ثـم بَرَدَ دَمُهُ؟ حدثوني عن هؤلاء الباردين إن لقيتموهم، فإنهم خلقٌ يبرأ منه وطنه وتُنكر الإنسانية نسبه...

***

لو كان الصيفُ رجلاً... لقتلتُهُ[1]

أرهقنـي الصيف من أمري عُسراً في هذا العـام، فلم أستطع معه صبراً ولا حيلةً، فقد فرضتْ عليَّ الضروريات أن ألزم القاهرة في هذا القيظ الملتهب، لا أبرحهـا إلى ساحلٍ ولا إلى جبلٍ، فإننـي –فيما أعلم– موظفٌ بالحكومة وليس يُتاح لموظف بالحكومة أن يبرح محل عمله إلا أن يُؤذن له، وأنا أخشى أن أستـأذن فلا يُؤذن لي؛ فيحملني ذلك على حماقة من الحماقات لا أحمد مغبَّتهـا، ثـم إنني إلى ذلـك موظفٌ ظنينٌ يُسـيء الظنَّ بطاعتـي الأقربون والأبعـدون من رؤسائي، لا مندوحـة لي إذن من مداراتهم والصَّبر عليهم.. ولكن كيف الصبر على هذا القيظ؟

ولو أنَّ الوظيفة كانت هي كل واجباتي لهان عليَّ احتمال تبعتها واحتمال قيظ القاهـرة معها وفي سبيلها.. فما هي تبعة الوظيفة في مصر لموظف صغير أو موظـف كبيرٍ، إلا أن يلزم محلَّ وظيفته ساعـاتٍ من النهار يهيئُ فيها نفسَهُ لطاعـة كل ما يصدر إليه من أمر، والقيام بكل ما يطلب إليه من عملٍ؟ فهو آلـةٌ عاملـةٌ ككل الآلات إلا أن لـه خمسَ حواسٍ، فهل يُؤثِّـر القيظ في طاعة الآلة على العمل أو قدرتها على الإنتاج؟ ومعذرة إلى بعض زملائي الموظفين

(1) صحيفة النداء 20 يوليو 1948.

الذيـن يُسرفون في حسن الظـنِّ بأنفسهم فيزعمون أنهم في بعض ما يؤدون من عملٍ أصحابُ رأي، وما لهم على الحقيقة رأيٌ إلا أن يكون في الشكل دون الموضـوع، وفي العرض دون الجوهر، على حين تمضـي الأمور حولهم –في جملتها– على ما رسم الرئيس الأعلى.

وإذن فليسـت تبعـة الوظيفة هي التي أعيتني في هـذا القيظ وأعجزتني عن احتمالـه؛ ولكنهـا تبعات أخـرى، فأنا رجلٌ قـد زعمتُ لنفسـي، أو زعم لي النـاس فصدَّقـتُ أنني كاتبٌ، وأن مـن حقي أو من واجبي بهـذه الصفة أن يكون لي رأيٌ في الشؤون العامة يجب أن أجهر به وأدعو إليه وأصوره لمن يقرأ أو لمن يسمع تصويراً يوسّع دائرة الإقناع به، وإذاً فإنَّ عليَّ أن أعرف الشؤون العامـة وأن أتتبع أحداثها، وأن أعالج مـا أعرف منها علاج صاحب الرأي، وهـو تكليفٌ صعبٌ يقتضي القيامُ به راحةَ نفسٍ وهدوءَ أعصابٍ لا يتهيآن في مثل هذا القيظ.

ثـم إننـي أزعم لنفسـي، أو يزعم لي النـاس فأصدق أننـي صاحب فنٍّ، في القصة، أو في المقالة، أو في الحديث، أو في فن ما من فنون الأدب، وأحسبني حريصـاً على هذه الصفة أكثر مـن حرصي على الوظيفة وعلى الكتابة، فلو أنَّ الناس لم تعرفني موظفاً، ولا كاتباً، وعرفتني صاحب فنٍّ من هذه الفنون؛ لسـرَّني ذلـك وملأ نفسي غبطةً ولو لم أملك رغيفاً مـن خبزٍ ولا درهماً من مالٍ، ذلك لأنني رجلٌ من أولئك الخرافيين الذين لا يزالون يؤمنون بالتاريخ ويحرصون على أن يكون لهم ذكرٌ فيه، والتاريخ لا يذكر الموظفين...

ولا يذكـر كل الكُتَّاب ولو مـلأوا الدنيا صحائف، ولكنـه لا ينسى أهل الفن؛ لأنَّ الفـن أخلد من التاريخ، وإذاً فأنـا حريصٌ على أن أكون صاحب فنٍّ من الذيـن لا ينساهم التاريـخ، وحرصي هذا يزيد شعوري بتبعة الفنان، فلا بد أن أعمـل، وأن أدأب، وأن يكـون لي كل يومٍ جديد في الفن أضيفه إلى قديم،

فمن أين لي الطاقة على كل ذلك في هذا القيظ؟

ثم إنَّني فوق تبعة الموظف، وتبعة الكاتب، وتبعة الفنان، عليَّ تبعة أخرى... ذلك أنني أبٌ، بل إنَّني أبٌ وأمٌ، ولي أطفالي ينادونني أحيانا نداء الطفل أباه وأحياناً نداء الطفل أمه، فعليَّ من تبعات الأبوة والأمومة عبءٌ آخر فوق عبء الموظف وعبء الكاتب، وعبء الفنان، فمن أين لبشر من الناس أن يكون موظفاً وكاتباً وفناناً وأباً وأماً في هذا القيظ الخانق وفي جو القاهرة؟

ولكنني قد حاولتُ أن أكون، فهل أفلحت؟

منذ سنين وأنا أحمل على كاهلي هذه التبعات وأمضي بها إلى وجهي خفيفاً نشيط الحركة لا تتكاءدني عقبةٌ، ولا يعترض سبيلي شيءٌ، لا البغي، ولا الحسد، ولا دناءات الصغار والكبار، ولا سخريات أهل الغفلة، ولا شماتات أهل النعمة الذين يحسنون الظن بالأيام.. لا شيء من ذلك، ولا ذلك كله مجتمعاً، استطاع أن يقطع بي أو يضعفني عن احتمال تبعاتي...

واستطاع هذا القيظ الخانق...، ويلي...، ويلي...

الشجرات في الحديقة ساكنةٌ جامدةٌ واجمةٌ لا يهتزُّ منها فرعٌ ولا تختلج ورقةٌ... أهذه شجراتٌ حيَّةٌ أم صورةٌ مرسومةٌ وإن لم يمسكها إطار؟

قُرْصُ الشَّمْسِ الأحمر ينحدر بطيئاً نحو الغرب، ولكنَّ أشعتها تلحس الوجوه والأقفية، وحرارتها تنضج الرؤوس والأفئدة، فلا يكاد أحدٌ من الناس يشعر أنَّ الشمس تنحدر نحو الأفول!

الضَّبابة الدكناء من غبار المدينة قد انعقدت فوق الرؤوس وفي أعالي الشجر وعلى سطوح البناية... لا تدفعها ريحٌ ولا تذيبها حرارةٌ، كأنها كذلك بعض ألوان تلك الصورة التي يمسكها الشفاه ظامئة، والحلوق جافة، والتنفس زفيرٌ بلا شهيق، وقطرات العَرَق لا تكاد تجد طريقاً بين الشعار والجسد من شدة ما التصق الشعار بالجسد، كوب من الماء يا فتاة! وتأتي الفتاة بالكوب

لأفرغه في فمي فينفذ من جلدي...

- أديــري هذه المروحة يا فتــاة لعل الهواء يتحرك فيرد علــيَّ بعض أنفاسي الذاهبة، وتدور المروحة ولكنها لا تحرك هواء ولا ترد أنفاساً ذاهبةً وأدنيها منــي أو أدنو منها قليلاً قليــلاً حتى أحسَّ أنفاسها وتحسَّ أنفاسي، فلا يلبث الصداع أن يأخذ رأسي.

- مهِّـدي لي الفراش يا فتاة! وتُمهِّـد الفتاة الفراش فلا أكاد أجد إلى النوم سبيلاً والنافذة مغلقة!...

- افتحي النافذة يا فتاة!

وتفتــح النافذة فإذا الغرفة التي كانت خالية إلا مــن جسد يتقلَّى في فراشه يحترق، قد امتلأت من الذباب بأسرابٍ لها لسعٌ وطنينٌ!

- أرخي الكِلَّة[1] على السَّرير يا فتاة!

وتســدل الكِلَّة علــى السَّرير؛ فإذا أنــا منه في قفص محكــم الغلق، لا نسمة مــن هواءٍ، ولا حرية حركةٍ! وأمدُّ يدي إلى كتاب أقرأه فيثقل الكتاب في يدي وتتراقص السطور تحت عينيٍ، وأمسك القلم لأخطَّ سطراً؛ فتتبعثر الفكرة في رأســي وتخرس الكلمات على شفتــي، ويثقل على الأطفال مــا يثقل عليَّ مــن وطأة الحرِّ فيحاولون التخفُّف من الضيــق بالزياط والحركة والصياح والمواثبة، فلا يلبثون أن يتعاركوا ليختصموا إليَّ.

ويرضــى طفل ويغضب طفل، ويتحير أبوهم بين الغضبان والراضي، ويضيق صــدراً، فينسى الأبوة والأمومــة، وينتهرهم جميعاً في غلظة، فينفضُّون عنه في انكسارٍ وخوفٍ!...

ويمضــي نهار الصيف وتتبعه الساعات الأولــى من الليل ثقيلة مثله، ثم يرقُّ النسيم شيئاً بعد شيءٍ، فتخف النفس، وتثقل الجفون، ويسترخي الجسد...

(1) قماش رقيق يحيط بالسرير ليمنعه من البعوض.

ويُحسُّ جائع النهار بحاجته إلى طعام...

ثم يأوي المكدود الممتلئ المعـدة إلى فراشه... فراش العَرَق والأَرَق! هذا يوم مضى... ماذا فعلتُ فيه لغيري وماذا فعلتُ لنفسي؟

ويلي...!، ويلي...! ويلي من الناس... وويلي من نفسي!

بل ويلي من الصيف!... إنه يخنقني كل يومٍ مراتٍ، ثم يُحْيِيني... ليتني أراه رجلاً فأخنقه!!

***

ذِكْرَى مِيلادٍ.. عندَ الثَّلاثِين [1]

لَشَدَّ ما أعياني السُّرى[2]!

منذ تسع وعشرين أُصَعِّدُ في الجبل وما بلغتُ. أتُراني إلى القمَّة أدبُّ دبيبي، أم قد جاوزتُها وما أدري، فأنا منحدرٌ أتدلَّف من جانبها إلى بطن الوادي..؟

يكتنفُني الغيب فما أعرفُ أين يومي مِن أمسه ومِن غده.

أمَّا أمس فقد خلعتُهُ عنِّي، وطوته الأيام طيَّ مرقعةٍ بالية فما تراه إلا خُلْقاناً[3] مركومةً كالميت لفَّته أكفانُه.. وهل الماضي إلا الجزءُ الذي مات منَّا؟

وأمَّا الغد... فمن لي بما هناك؟

إنَّ الأحلام لتكذب، فما أحسبها كانت تتراءى لي إلا دنيا غير دنياي ليس من أيامها يومي ولا غدي.

هذه الأيام صرعى على مدرجة الزمن، وما تزال المُنَى تصطرع في رأسي!

يا لي من الأيام!

---

(1) الرسالة، العدد 74، بتاريخ 3 ديسمبر 1934.

(2) السُّرى في الأصل السير ليلاً.

(3) خُلْقان: جمع خَلَق وهي ما بَلِي من الثياب والجلود.

لشَــدَّ ما كانت تسخر مني إذْ تمدُّ لي أسبــاب المُنَى، حتى إذا هممتُ لم تكن عثراتي إلا أيامي!

انقشعي أيتها الغيوم، واكشفي لي عمَّا وراءك؛ إن لي أمنيةً هناك!

إني لأراني كأنمــا لَبِسَنــي النوم[1]، فأنا من الرؤيــا في دنيا غير التي أعرف، وناسٍ غير هذه الناس، وثمَّت طفلٌ يعدو خلف فراشة، أتراه مُدرِكُها؟

لقد آب فارغ اليد، ولكن على شفتيه ابتسامة!

وأقبل يتعرَّفني وما كانت به إليَّ من حاجة.

قال: مَن أنت؟

قلتُ: أمَا تعرفني؟

قال: نعم؛ فمن تكون؟

قلتُ: فانظر في مرآتك لعلك واجدٌ فيها الجواب.

ونَظَــر ونظرتُ مِنْ خلفه، فما كان في المــرآة إلا وجه الطفل الضاحك، ولوى رأســه وعــاد ينظر إليَّ ويقــول: لستَ هناك، ومــا أراني أعرفك، ولا تعرفك مرآتي.

وفرَّتِ الفراشةُ فانطلق يعدو وراءها والابتسامة على شفتيه!

يا طفولتي التي فرَّت بأسعد أيام الحياة، ليتكِ كنت تعرفين!

وعــاد الطفل فتى يخطر ريــان الوجه مشرق الجبين، فــازْوَرَّ[2] إذْ رآني على الطريق؛

قلتُ: أتُنكرني يا فتى؟ فإنني صاحبك!

---

(1) مجاز عن اشتمال النوم عليه وغلبته إياه.

(2) ازورَّ: مَالَ وانحرف.

قال: متى؟ فما أظنُّني عرفتُك!

قلــتُ: ذاك يوم التقينا على السَّفح والشمس ضاحيةٌ، وتصاوير الزَّهر ترفُّ من أجنحة الفراشة.

وابتسم الفتى ومرَّ بيمناه على جبينه[1] وهو يقول: لعلي أذكر من بعدُ!

وانطلــق يغنِّي جذلان: يا نضارة الصِّبا وبُكْرة الشباب، ليتكِ إذْ توليتِ عابثةً ناعمةً بالحرية كنتِ تدْرين مَنْ هناك!

وأقبل من بعدُ شابٌّ يبتسم.. ما أشبهه بصاحبه!

قلتُ: ها أنت ذاك، أما تعرفني؟

قال: كأني رأيتُك من قبل، بربِّك مَنْ تكون؟

قلتُ: فإنك ما تزال تُنكرني على ما صحبتُك زماناً ولمَّا يَنْقَضِ عهدٌ طويلٌ!

ولم أجـد جوابي؛ فقد لوى الشاب رأسه يتابــع بعينيه فتاةً تخطر، ثم انطلق مُهطعاً[2] وراءها ونفسي تتبعه.

يا الله! لكأنها هي...!

وتلاشى الوجود من أمامي؛ فلم أعد أرى غير وجهٍ ضاحك، وطلعةٍ مشرقةٍ، وعينين تَشِعَّان النور من وجه الفتاة، ورأيتُها تدنو منِّي وفي وجهها كلامٌ...

قلتُ: أما تزالين تذكرين يا فتاة؟ يا للنفس العطوف!

قالت: أئنَّهُ لأنت؟ لله صبرُك!

وانقضَّــت كلماتُها على صدري بالهمِّ والوحشة والعذاب، وكأنَّما اجتمع منها تاريخ سبع سنين طوالٍ، ما يزال في القلب منهنَّ جراحٌ تنزف!

(1) كناية عن معاناة الاستذكار واستدعاء ما وعته الحافظة من الأشخاص والوجوه.

(2) الإهطاع: الإسراع إلى الداعي تُقبل ببصرك عليه لا تطرف.

وانثالت الذكريات على نفسي تتمثل من مشاهدها قصة غرام ثائر، أغْفَلَها مُنشِئها قبل أن يبلغ بها إلى نهاية.

ورُحت أَنْكُتُ الأرض بالعصا، كأني أُفتِّش تحت التراب عن الجزء الذي مات من قلبي! ورأيت ظِلَّها على الأرض، فاستحيتُ أن أرفع رأسي وفي عيني دموع! يا للشباب من حبٍّ بلا رجاءٍ!

أَأُضيع أنضر أيام الحياة مصبوباً على نفسي، أبحث عن أهون ما في الحياة؟ وأين الرجولة إنْ بذلتُ شبابي ونفسي لأعدو في ظل فتاة؟ أَتُراها تَجدُ فَقْدِي؟ إنَّ المرأة للرجل إن هي إلا وحيُ المجد ومطلعُ الأمل، فإذا عادت لهفةً ودموعاً فما هي امرأة؛ ولكنَّها اليأس والحرمان والخيبة!

وتذكَّرْتُ صاحبي الذي انفلت مني مُهطعاً إلى فتاته، فإذا هو أمامي والفتاة إلى جانبه ذراعاً إلى ذراعٍ.

قال: ما تقول لنفسك؟

قلتُ: أوَ تسمع هَمْس النفس ونجوى الضمير؟

قال: قد علمت بعض هذه النجوى... أفكنتَ تتحدث بما تتحدثُ إلى نفسك، لو لم تكن هذه الشعراتُ البيض تَخْفَى وتلوح في فَوْدَيكَ؟[1]

قلتُ: أوَتراها؟... فاسأل صاحبتَك عن خبرها؛ فهل جاءك أن هذا الشيب الباكر يدلُّ على شباب القلب؟ ما أحسبك تَعْلَمُ حتى تُنْبِئَكَ الشَّعرةُ البيضاء!

واستضحك الفتى والفتاة... وتلاشى الوجود ثانيةً من أمامي! وإذا أنا في دنيا غير دنياي، وناس غير هذه الناس؛ وإذا المرآة أمامي تجلو لي ما تجلو (الخيالة)، وكأنما اجتمع بها في زمانٍ ومكانٍ تاريخي كله على الأرض منذ

(1) الفَوْد: جانب الرأس مما يلي الأذن.

تسع وعشرين بماضيه وحاضره، وران ضبابُ أنفاسي على ثلث المرآة.

وإذا فيمـا ظهر لي من المرآة طفلٌ يعـدو خلف فراشة، ما ينفكُّ يقفز ويثب، وغلامٌ يخطر مغنِّياً جذلان، مـا يعنيه إلا الكرة يرتق فُتوقها، واللِّدَات[1] من الصِّبيان يتجاذب وإياهم أسباب المسرَّة في الحارة وعلى ناصية الطريق.

وشـابٌ باسـمُ الثغر منبسـط الأسارير دنياه هذه الفتاة، لـه منها في النهار مشغلةٌ وفي الليل مشغلةٌ.

ثم... ثم هذا الوجه الذي يعرفه صحابتي، على شفتيه ابتسامةٌ عابسةٌ، وفي عينيه سرٌ يبالغ في الاستخفاء، ومن وراء جبينه أمانيٌّ تصطرع، ودنيا يموج بعضها في بعضٍ.

ليـت شعـري أهذه هي الحيـاة، أليس فيها أحسـنُ ممَّا رأيـتُ، أهذا كل ما هناك؟

يا ضيعة المُنَى إن كان الغد يوماً مُكرَّراً ممَّا فات!

أين المثل الأعلى الذي جهدتُ في تخيُّله، وأعياني الكدُّ في البلوغ إليه؟

أتـرى البشرية الضَّالة قد حطَّمت تمثاله، وخربـت هيكله، أم لا يزال قائماً هناك مختبئاً خلف الغد؟

***

(1) اللِّدَات: مَن هم في مثل عمره، مفردها لِدَة.

الدَّرسُ الذي علَّمني أَبِي!

(مهــداةٌ إلى الذين يَعنيني أَمْرُهُم من صِغَــاري.. وإلى الذين يَعنيهم أَمْرِي من كبارِ النَّاسِ)[1]

لم أدرك أبــي –رحمــه الله– إلا شيخاً (حَطِماً) قــد قارب المائة أو جاوزها وسبقــه أهل جيله ورفقاء نشأتــه إلى الله منذ سنين بعيدة، فلم يكن له حين أدركتُــهُ (معاصرون) يُذاكرهــم ويُذاكرونه أو يُجاذبهــم ويُجاذبونه حديث الماضي، وقد رأيتُهُ يستقبل في حجرته التي لزمها بضع سنين قبل موته، كثيراً من أعيان الجيل ومشاهير أهل العلم، يخلون إليه ساعةً أو ساعات يُحدِّثونه أو يستمعــون إلــى حديثــه، وهو جالسٌ أو مضطجع بلا كُلفــةٍ، ولكن حديثه إليهم وحديثهم إليه لم يكن يتجاوز –إلا فيما ندر– نطاق (الحاضر) الذي يعيشــون فيــه، إذْ لم يكن أحدٌ من جلسائه يعنيــه في شيءٍ حديث (الماضي) الــذي كان يعيش فيه ذلك الشيخ أو يلتفــت إليه ذهنه، وكان للشيخ –رحمه الله– قدرةٌ على التجدُّد تكاد توهم جلساءه أنه في عصرهم يعيش...

على أنَّ كلَّ حيٍّ لابدَّ له من حنينٍ على ماضيه في لحظةٍ من لحظات التذكُّر، يعــود بــه القهقرى سنــين بعيدةً فيطلــق عقدة لسانــه، ويفضُّ الختام عن (قمقم) الذكريات...

وهكــذا رأيتنــي أكــثر من مــرَّة –وأنــا لم أزل طفلاً بعــدُ– جالساً إلــى الشيخ أستمــعُ إلى ما يقصُّ عليَّ من حديــث ماضيه ولا ثالثَ لنا، ولقد حضرتني هذه الصورة مرات من بعدُ، فذكرتُ بها أشتاتاً من تلك الأحاديث، وكنتُ في كلِّ مرةٍ تحضــرني فيها هذه الذكرى أســألُ نفسي دهشاً: مــاذا كان يُغري ذلك الشيخ الجليــل – يــا ترى – بالحديث في تلك الشؤون، إلى طفلٍ لا يكاد يعي ما يسمع،

---

(1) النداء 28 سبتمبر 1948.

إلا كلمات خالية من الصور والمعاني، ولكن كنتُ أقف دون الجواب عاجزاً، فلم أفهم إلا من بعدُ لماذا يجد بعض الكبار لذةً حين يتحدثون إلى بعض الصغار، وكان ذلك حين رأيتني ذات مرة مسترسلاً في حديث طويل – بلا وعي – إلى طفلي الذي لم يبلغ السابعة بعدُ، أصف له بعض ما كان في سالف أيامي، وقد مات أبي –رحمه الله– قبل أن أبلغ الخامسة عشرة، ومضى منذ ذلك اليوم بضعٌ وعشرون سنةً، ولكنِّي لم أزل حتى اليوم أذكر تلك الأحاديث التي كان يُلقيها إليَّ طفلاً؛ بل لعلَّها في وعي وإحساس الباطن أثبت منها في ذاكرتي...

إنَّ كثيراً من تصرُّفاتنا التي تقع على أعين الناس كأنها أعمالٌ صادرةٌ عن تدبُّر ورويَّة، ليست في حقيقتها إلا نوعاً من انعكاس الوعي الباطن على ظاهر الحياة، فهي أثرٌ انفعاليٌّ لإحساساتنا الكامنة التي ترسَّبت في ذلك الوعي منذ زمان، وليس لنا فيها على الحقيقة تدبيرٌ ولا إرادةٌ، ورب كلمة وعتها أذنُ طفلٍ لم يبلغ سنَّ التمييز فلم يدركها إدراك ذي عقلٍ، ولكنها استقرت في وعيه الباطن استقرار البذرة في الأرض إلى إبَّانها، لتكون من بعدُ شجرةً ذات ظلالٍ وثمارٍ أو ذات حطبٍ للوقود وإذكاء اللهب!

وهكذا أذكرُ اليوم بعض ما وعيتُ من أحاديث أبي، وأستعيد إلى جانبه أشتاتاً من صور حياتي الواعية المدركة فأكاد أُنكرُ بعض ما كان منِّي، لولا علمي أنه قد كان حقّاً، ولكن بلا وعي ولا إرادة، انعكاساً لإحساسات وصورٍ هي بعض ما ورثتُ من أسلافي، أو بعضُ ما وعيتُ من حديث أسلافي...

أمَّا الحديث عن تلك الأشتات من صور حياتي فلا حاجة بي إليه، فإن أهل الفنون لا يعيشون كما يعيش الناس وراء الأبواب الموصدة، فحياتهم مكشوفةٌ لأهل الفطنة وأهل الغفلة على السَّواء، لا يختلف أولئك ولا هؤلاء فيما يعرفون عن شؤون حياتهم، وإن اختلفوا في الحكم عليهم، ولكن بي حاجة إلى أن أروي طائفةً من حديث ذلك الشيخ –رحمه الله– إلى ولده

الصَّبي منذ بضع وعشرين سنةً...

قـال الشيـخ لولده: لم يكن أبوك ذا مـالٍ يا بني منذ بضـع وثمانين سنةً، أو منـذ بضـع وتسعين، حين غـادر القرية لأول مـرةٍ في طلب العلـم، فقد كان جـدك حيّاً يُرزق، وكان الناس في ذلك الزمان البعيد لا يتهيأ لهم أن يكونوا ذوي مالٍ وآباؤهم أحيـاء، فقد كانت الأرض التي يتوارثها الأبناء عن الآباء هـي كل المـال في ذلك الزمان. وقد كان أبـي فلّاحاً كأبيه وجـدِّه، أُمِّيّاً ككل الفلاحـين في عهده وعهد أبيه وجدِّه، ولكـنَّ جدِّي الأعلى –فيما سمعتُ من أهلـي وما عرفتُ من بعـدُ– لم يكن فلّاحاً ولا أُمِّيّاً؛ بـل كان شيخاً من أهل الرأي والعلم والكرامة في قومه، كما لا تزال تُنْبِئُكَ حتى اليوم تلك القصائد المنظومـة التي يفتتحُ بها الصوفيَّة مجالسهم ويختتمونها متوسِّلين بشيخهم (العريان) وكما تنبئك بعض الروايات في بعض كتب التاريخ!

قـال الشيـخ: وكأنَّما كنـتُ أوثّقُ صلةً بجـدِّي هذا من أبي ومـن أبيه، فأردتُ أن أصـل نسبي بنسبه في العلم، وطلبتُ إلـى أبي أن يأذن لي في الذهاب إلى الأزهر، ولم يكن لأبي ولدٌ غيري فلم يأذن لي، ولم تقنعني حجةُ أبي فأصررتُ، وكان في أبي عنادٌ وكنتُ عنيداً مثله فاصطدمتْ كبرياءٌ بكبرياء، ونشأت أزمةٌ بيني وبين أبي استعصى حلُّها على شيوخ الأسرة وشبابها؛ فأصرَّ أبي على ألا يزوِّدني في السَّفر زاداً، وأصررتُ أنا على السفر وإنْ لم يكن معي زادٌ!

قـال الشيخ: وهكذا اتخذتُ طريقي إلى الأزهـر راجلاً بلا رَكوبة ولا زاد ولا مـالٍ، إلا ما دسَّته أمِّي في يدي على غفلة من زوجها، وقد تلبَّثتُ في (طنطا) فترةً حصلتُ فيها طرفاً من العلم، ثم استأنفتُ السَّفر إلى القاهرة.

قـال الشيخ: وترادفت السُّنون، وصـار لي في القاهرة دارٌ وفي الأزهر (عمودٌ) وبلغـتُ المنزلـة التي كنتُ أطمحُ أن أبلغها، وصار اسـم (العريان) مذكوراً بين

أهل الرأي والعلم ولم يكن من قبل إلا ذكرى من ذكريات التاريخ البعيد، وقرَّت عين أبي، فقد عاش حتى جاوز المائة ورأى وحيده (شيخاً) قد جاوز السِّتِّين!

كذلك حدثني أبي، وإنَّ في نفسي لحديثاً مثله أريد أن أتحدَّث به إلى ولدي، فإن أمي -عافاها الله- لتزعم أنني عنيدٌ، كما كان جَدِّي يصفُ وَلَدَهُ منذ أكثر من قرنٍ، وإنَّها لتؤيد زعمها هذا بوصف ما كان من إصراري على فراقها إلى القاهرة لأستزيدَ من العلم بعدما حصلتُ على الشهادة الثانوية، وإنها لأرملةٌ شيخةٌ، وإنني لأكبر بنيها، فلم يصرفني عما أصررتُ عليه دموعها، ولا ضراعتها، ولا أنها أرملةٌ شيخةٌ وإنني أكبر بنيها...

وحدَّثني الشيخُ قال: كنتُ شيخاً في الأزهر حين احتدمت الثورة العُرابية، ولم يكن لي في السياسة قبلها باعٌ ولا ذراعٌ، ولم أكنْ من العلم بخبيئاتها بحيث يحقُّ لي أن أكون من أهل التدبير فيها، ولكني إلى ذلك لم أكن من الغفلة بحيث يغيب عني أنها نهضةٌ وطنيَّةٌ توشك أن تجني الأمة ثمراتها المباركة، فاندمجتُ فيها اندماج صاحبِ التدبير والرأي، وشاركتُ فيها بيدي ولساني، ورأيتُني على منبر الأزهر خطيباً وشاعراً يستمع لقوله الآلاف ويُطيعون...

قال الشيخ: ثم انهارت الثورة فجأة، وجدَّ أصحاب السلطان في أثري يطلبون دمي.. ورأيتُني مرةً أخرى أقطع الطريق راجلاً من القاهرة إلى طنطا، بلا ركوبة ولا زادٍ ولا مالٍ، إلا ما اتَّسع له كيسي من جنيهات ذهبيَّة قليلة العدد... وكنتُ يومئذٍ شيخاً في السِّتين قال الشيخ: وآويتُ إلى دارٍ صديقي السيد إمام القصبي شيخ الجامع الأحمدي في طنطا، حتى تهدأ الفتنة، ويخفَّ الطلب، والشرُّ يتربَّص بي أتوقعه في كل غداة وعشيَّة، وقد استسلم الثائرون، آحاداً وأفواجاً، وسعوا إلى أصحاب السلطان يلتمسون إليهم الزُّلفى بالندم والتوبة وتمريغ الخدود على الأعتاب، حتى عفا عنهم، ولم تطبْ نفسي بمثل هذا الهوان في سبيل النجاة، إذ كنتُ مؤمناً بأني لم أفعل إلا ما أراه حقّاً واجباً...

وتحقَّق ظنِّي بالله، فقد شملني عفو الخديوي ولم أبذل شيئاً من ديني ولا من ماء وجهي، ونجوتُ بطيب نيتي وبراءة قصدي...

واستأنفتُ في طنطا من يومئذ حياةً جديدةً، واستبدلتُ بعمودي في الأزهر (عموداً) آخر في الجامع الأحمدي..

يا روح أبي وراء الغيب المحجوب! إنِّي لأذكرُ ذلك الحديث الساعة، فأشعرُ كأنما تفتحت عروقي لينصبَّ فيها دمٌ حارٌ أُحِسُّ له نبضاً في قلبي ورجفةً في أعصابي!

أَمِنْ أجل ما توقعتَ يا أبي أن يعترضَ سبيل حياتي المستقبلة من أسباب الكيد والفتنة قصصتَ عليَّ منذ سنين بعيدة قصةَ ذلك الماضي البعيد، وأنا لم أزل طفلاً بعدُ، أم بإلهامٍ من الله علمتني -غير مريدٍ- كيف أستقبلُ أيامي؟

ويا طفلي الصغير الذي لم يبلغ السابعة من عمره بعدُ، تعال أُحدِّثُك عن ماضي أبيك وجدِّك، حديثاً يرنُّ في أذنك اليوم كلمات ليس لها معنىً ولا دلالةٌ، ولكنه خليقٌ بأن يستقرَّ في وعيك استقرار البذرة في الأرض الخصبة، إلى إبانها.

إنَّ الأمانة التي حمَّلنيها أبي يا بُني منذ بعيدٍ ستؤول إليك يوماً ما فتتعلم من ذلك الدرس -كما تعلم أبوك- كيف تواجه ما يلقاك من الأحداث في أيامك المستقبلة، بإباءِ أهل العزم وإصرارِ أهل الإيمان..

***

فلاح.. وباشا.. وتذكرة ترام!! (1)

صديقي (أبو الحسن) رجلٌ أصوليٌّ لا يتهاون عن حقّ، ولا يغفل عن واجب، وهو مثلنا من (الرَّاجلين) أو (الترَاميِّين) وأحياناً من (التاكسيِّين)؛ لأنه لا يملك سيارةً خاصَّةً تُقلُّه إلى حيث يشاء في أي وقتٍ يشاء، وليس له وظيفةٌ

(1) النداء 22 يونيو 1948.

كبــيرةٌ أو صغيرةٌ في الحكومة تتيح له سيارةً حكوميَّةً تُقلُّه وأسرته وأصدقاء أسرته وجيران أسرته أيضاً.. إلى حيث يشاء، أو حيث لا يشاء!

وقــد ركب صديقي أبو الحسن الــترام لبعض شأنه أمســ، كما يركب لأكثر شؤونــه كل يوم، ثم عــاد إليَّ غاضباً عاجباً في وقت معــاً، وكان بين إصبعيه تذكــرة الترام لم يمزقها بعدُ، وقد خطَّ على ظهرها أرقاماً وحروفاً، قلتُ له وقــد اطمأنَّ به المجلس: إنَّ لك اليــوم لشأناً يا أبا الحسن؛ فما هذه التذكرة التي بين إصبعيك؟

قــال: نعم، وإنه لشأنٌ عجيبٌ، وهذه التذكرة لَشاهدٌ إثباتٍ في قضيةٍ لابد أن تبلغ آخرها.. لقد فسد الزمان يا صديقي!

وكان يحدِّثني في لهجة بين السُّخرية وانفعال الغضب، وعلى شفتيه ابتسامة تشبــه أن تكون عُبوساً، فلــم أدر أكان يُحدِّثني ساخطــاً أم ساخراً، وأخذتُ التذكــرة من يــده فقرأتُ ما خطَّ على ظهرها من أرقام؛ ثم دفعتها إليه وأنا أقــول: قد ضمنتُ أنــك ركبتَ الدرجة الأولى في الــترامَ، وأنَّ هذا المخطوط علــى ظهر التذكرة هو رقم التَّذْكَرِيِّ الــذي باعك إيَّاها، فما كان خبرك مع هذا التَّذْكَرِيِّ؟

قال: اسمع يا سيدي..

وأرهفــتُ لــه سمعي طاعــةً للأمر، فأخذ يقصُّ عليَّ، ولم تــزل اللهجة بين السخرية وانفعال الغضب، وعلى شفتيه تلك الابتسامة التي تشبه العبوس...

قال: كان يجلس في مقاعد الدرجة الأولى –حين صعدتُ– أربعةُ نفرٍ وطفلٍ، ويقف في الممر اثنان، ولم أجدْ لي مقعداً فصرت ثالث الواقفين.. واسمح لي أن أصــف لك هؤلاء الركاب قبل أن أسرد عليــك القصة: أمَّا أحدهم فكان عامــلاً عائداً من عمله –فيما يبدو– لم يخلع ثوب المهنة بعدُ، وأحسبُهُ كان

متعباً فآثر الجلوس في الدرجة الأولى حين لم يجد في الدرجة الثانية مقعداً خالياً يستريح فيه، وأمَّا الثاني فكان فلاحاً من ذوي الجلاليب لا يعرف فَرْقَ ما بين الدرجتين الأولى والثانية؛ ولكنه وجد مقعداً خالياً فجلس كما اتفق، وكان في المقعدين الآخرين رجلٌ من سواد الناس قد جلس بينه وبين امرأته طفلٌ قد مدَّ رجليه إلى الممر تنالان بقذارتهما ثيابَ الواقفين والمارِّين، أما الواقفان معي في الممر فشابٌّ وكهلٌ عليهما أثرُ النعمة... وجاء التَّذْكَرِيُّ بعد أن قطع الترام شوطاً فبدأ بالواقفين يُحصِّل منهم الأجرة، ودفع إليه كلٌّ منَّا خمسة عشر مليماً وأخذ تذكرته، ثم مال إلى الجالسين يتفرَّس وجوههم برهةً، ثم طلب من كلٍّ منهم ثمانية مليمات ليس غير، ودفع إليه تذكرةً من تذاكر الدرجة الثانية، وهمَّ أن يمضي حين سأله الشابُّ مستوضحاً سرَّ هذا التفريق في المعاملة، فقلب شفتيه مستنكراً وهو يصوِّب النظر إليه ويصعده صامتاً في وجه سائله هذا (الفضولي) ثم قال له مؤنِّباً: وما شأنك أنت؟!..

قال صديقي أبو الحسن: وثار دمي لهذه القِحَة العجيبة[1]؛ فقلت له: أليس من حقه أن يسألك لماذا أخذتَ من كلٍّ منا خمسة عشر مليماً ما دامت ثمانية مليمات تكفي؟ وبدا لي كأنما أقنعه سؤالي فرأى من واجبه أن يجيبَ... وكان جوابُهُ أعجبَ من فعلته... قال: «يا سعادة البيك.. يا سعادة الباشا– يا حضرة الأفندي» وكانت لهجته خطابية فيها نبرات الانفعال، فرنَّت في أذني كما يستفتح الخطيب خطبته قائلاً: سيداتي سادتي.. فأصغيتُ إليه وهو يتابع القول في حماسةٍ وحِدَّة: «هذا الفلاح، وهذا العامل، وهذا الأجير وزوجته– أتريد أن يدفع كلٌ منهم خمسة عشر مليماً كما تدفع أنت يا سعادة البيك، يا سعادة الباشا، يا حضرة الأفندي...أم يشقُّ عليك أن تدفع سبعة مليماتٍ أكثر مما يدفع وأنت الغنيُّ السَّعيد وهو الفقير المكدود!.. وما خمسة

(1) القِحَة: كلُّ فعلٍ أو كلامٍ وقحٍ.

عشــر مليماً بالقياسِ لما معــك، وكم مع هذا المسكين البائس حتى يدفع أكثر من ثمانية مليمات؟!..

قال صديقي: وفرغ التذكريُّ من خطبته هذه البليغة، ثم أولانا ظهره ومضى غــير متلبِّث، و(صفق)[1] البــابَ بيننا وبينه في عنــف، وابتعد حتى لا يصل إلينا صوته ولا تصــل إليه أصواتنا، ونظرتُ إلى الجالسين؛ فإذا في عيونهم شــررٌ أحمر... فارتدَّت إلى حلقي كلماتٌ كانت ترتجف على شفتي، ثم عُدتُ أنظــرُ إلى زميليَّ الواقفين؛ فإذا على شفاههــم ابتسامتان تخفيان وراءهما ألوانــاً من الغضب والانفعال، ورأيتُ في هذا الحيِّز المحدود من عربة الترام طبقتــين من المصريين قد بذر هــذا التَّذْكَرِيُّ بينهما بعمله وقوله بذرةَ فتنة؛ فحوقلــتُ واستعذتُ بالله من الشيطان الرجيــم، وأغضيتُ على قذى؛ ولكنَّ زميليَّ الواقفين لم يُغْضِيا، وإنْ تناولا الأمر على نحو من الفكاهة يحاولان أن يسترا وراءه ما يُحسَّانِ من غيظ وحنق، فقال أحدهما مشيراً إلى الجالسين: لعــل لهم عليه بعض حق الأصدقــاء والأهل؛ فرأى أن يصطنع في مجاملتهم هذا الأسلوب، قال الآخر: وما لنا وأهله وأصدقائه يجاملهم على حسابنا؟!

وقال أحد الجالسين مغضباً: يا سعادة البيك...يا سعادة الباشا... وكان في صوتــه رعشةٌ كأنما يدافــع عن عرض مُنْتَهَك، وسكــت البيك والباشا برهةً فلــم يَنْبِسا بحرف، ولم أنبس أنا أيضاً، فقد كان المنظر يُنذر بشرٍّ لا قِبَل لنا بدفعه، وأمسك المتحدِّث مكتفياً بما قال تنبيهاً لنا على مكانته؛ ولكن زميليَّ لم يلبثا أن عادا إلى حوارهما غير مكترثين لما يمكن أن يكون، أو لعلهما كانا يريــدان أن يصطنعــا أسباباً لبــدء معركة فقال أحدهما: لعلــه ظنَّ أنَّ هذا الترام ملكه فهو يتصرَّف فيه وفي ركابه برأي المالك!..

قال الآخر: فهو إذنْ الرَّجل الذي قالوا إنه اشترى الترام!

(1) صفق الباب: ردَّه.

وعـاد الغضب فرسم صـورةً بشعةً على وجوه الجالسـين، وأوشكت أن تشبَّ المعركـة حين سمـع التَّذْكَريَّ ينفـخ في زُمَّارته بين محطتـين نفخةً مزعجةً، أوقفـت الترام فالتفتَ الرُّكاب جميعاً إلى الطريق مذعورين يتوقَّع كلٌّ منهم أن يشهـد فاجعةً داميةً من فواجع الـترام المعهودة، وانفضَّ اللجاج والجدل بين الواقفين والجالسين...

قال صديقي: ونظرتُ إلى الطريق كما نظر الناس، ولكنِّي لم أشهد شيئاً مما كنـتُ أحذر والحمد لله، ولكنِّي رأيـتُ مشهداً آخر.. فقد كان ذلك التَّذْكَريُّ ممسكاً بتلابيب رجل يحاول إنزاله من الترام والرجل الثاني يأبى.. لماذا؟ لا أدري فقد ازدحم النَّاس حولهما واشتد اللغط اشتداداً لا يبين فيه صوتٌ من صـوت، ولا حقٌّ من باطل، وحدستُ أن يكون ذلـك الرجل قد حاول الركوب بغير أُجرة فأبى عليه التَّذْكَريُّ، أو لعل هذا التذكريُّ لم يطب له لسببٍ ما أن يركـب هذا الرجل في ترام يرى نفسه فيـه السيد الآمر، فدعاه إلى النزول، على أن أمراً واحداً كان يعنِّيني في هذا الموقف، هو أن يعود الترام إلى السير لإدراك موعـد قد حـان.. ولكن الترام الواقف لم يسـر والمعركة الناشبة لم تنفضَّ، ووقف صفٌّ طويلٌ من عربات الترام بعضها وراء بعض، وتعطل مئات الناس عن مواعيدهم وعن أعمالهم، وضاق صدري آخر الأمر؛ فهبطت من الـترام لأستقل أول سيارة لقيتهـا لأدرك موعدي، وكتبتُ على ظهر التذكرة رقم التذكريِّ وأسماء بعض شهود الحادثة لأبلغ أمرها إلى بعض من يعنيهم الأمر... فهذه قصة هذه التذكرة يا صديقي...

قلتُ: فأنت إذن تريد أن تشكو هذا التذكريَّ إلى رؤسائه؟

قال: نعم ولابد من ذلك!

قلتُ: ولا يعنيك أن تتعرَّض لغضبه؟

قال: وماذا تعني؟

قلــتُ: إنه فيما يبدو تذكريٌّ من أصحــاب الرأي، أو من أصحاب الملك، أفلا تخشى أن يصادفك في تِرَامِه ذات مرة فيُصرٌّ على أن تنزل؟

قال ضجراً: أنت تمزح إذن والأمر جدٌّ

قلتُ: نعم

قال: فماذا ترى أنت؟

قلــتُ: أما أنا فأخالفك الرأي، ولو أنــك شكوت هذا التذكريَّ إلى رؤسائه لما وجــدوا في عمله مــا يستحق أن يُؤاخــذ عليه، فهل تراه فعل شيئــاً إلا أن آثر بعض الركاب على بعضٍ لأن بينه وبينهم صلة ما؟ وأي ذنبٍ هذا؟

قــال: ذلك ذنبٌ كبيرٌ، فليس الترام ملكاً لهذا التَّذْكَــرِيِّ، وإنْ خُيِّل إليه غير ذلــك، فليســ له أن يؤثــر أحداً أو يُحابيــه أو يحتسبه في مرفــقٍ من المرافق العامة في الدولة!

قلــتُ ضاحكاً: ولكــن ذلك يا سيدي في عــرف هذه الدولة ليســ ذنباً كبيراً ولا صغــيراً؛ بل إنه القاعدة وأساس الحكم في هــذه الأيام، فهل أخطأ ذلك التذكــريُّ حين سار على القاعدة العامة وجعــل المحسوبية أساس حُكْمه بين ركاب الترام..!

قال صديقي: ووقْفُ الترام وتعطيلُ مصالح الناس؟ أليس ذلك ذنباً يستحق المؤاخذة؟

قلــتُ: ووقفُ الــترام –ولو تعطلت مصالــح الناس– هو أيضــاً من القواعد العامة للحكم في هذه السنين، وإلا فانظر حواليك ثم حدِّثني..

ونظــر صديقي حواليه ولكنه لم يحدِّثني، وظلــت تذكرة الترام في يده يُقلِّب فيها النظر برهة، ثم ردَّها إلى حافظته وهو صامت..

وارحمتــاه للأصوليين الذين لا تطيب نفوسهم بالتهاون في حقٍّ أو الغفلة عن واجب في هذه الأيام....!

ثانياً: في الأدب والثقافة

أسبوعٌ في فَلَسْطِين (1)[1]

لمـا بلغتني دعـوة مصلحة الإذاعـة الفلسطينية بالقدس، لأذيـع حديثاً عن المرحـوم الرافعـيِّ لمناسبـة تمام سنةٍ علـى وفاتـه... تهلَّلت نفسـي وسُرِّي عنِّـي وقلت: هذا قطـرٌ من أقطار العربية لم يزل علـى وفائه لكاتب العربية والإسلام.

ثـم عادت إليَّ الذكـرى، فتغَشَّاني خزيٌ وألمٌ حين ذكـرتُ أنَّ مصر العربية المسلمـة لم تستطع -بعد عام- أن تقوم للرافعي ببعض حقه حتى في الدعوة إلى حفلة تأبينٍ تذيع فضله وتُذكِّر به... إلا محاولات فاشلة لا تُغني ولا تقوم ببعض الوفاء!

وازدحمـت في رأسي صورٌ وخواطر، وتتابعـتْ على عيني ذكرياتٌ وذكرياتٌ، وتدافعت إلى صدري آلامٌ وأشجانٌ؛ وقالت لي نفسي: بعضَ هذا يا صاحبي؛ وماذا كنت تنتظر أن تصنع مصر للرافعيِّ؛ وإنَّ بينه وبين كلِّ أديبٍ في مصر ثأراً لا يخفِّف الموت من عنفوانه وشِدَّته!

وكأنمـا كانـت مقالة صديقي الأستـاذ سيد قطب في ذلـك الوقت لتُذكِّرني بالحقيقـة التي يعيش فيها بعض أدبائنا حـين يحاولون أن يجعلوا من بعض العـداوات الأدبيـة ثأراً يتوارثـه الأبناء عـن الآباء، فيجعلون مـن دروسهم الأدبيَّة إلى تلاميذهم ما كان بينهم وبين الموتى من العداوة والبغضاء!

وهممـتُ أن أعتذر إلـى الداعي من حياءٍ وكبرياء، خشيـة أن يسألني سائلٌ هنـاك: ماذا فعلتْ مصـرُ للرافعي ولها كانت حياته وفيهـا مثواه؟ فتمنعني العزة القومية أن أتهم قومي بالعقوق ونكران الجميل؛ ولكني جمعتُ عزيمتي وأقنعـتُ نفسـي بأن العلم لا وطن له، وأن البلاد العربية كلها وطنٌ واحدٌ لمن

(1) الرسالة، العدد 255، بتاريخ 23 مايو 1938.

يستشعر في نفسه عِزَّة المسلم ومجدَ العربي.. وأجبت الدعوة...

وكنـت ثالثَ ثلاثةٍ من المصريين دعتهم مصلحة الإذاعة بالقدس منذ كانت للإذاعـة أحاديثَ أدبية؛ أمـا السابقان فهما الدكتور هيـكل باشا والأستاذ المازني.

***

فلسطـين هي تلك البـلاد المقدَّسة التي تربطنا بها أواصـر وثيقةٌ منذ أقدم عصـور التَّأريخ، مـن أيام الفراعين، إلـى صدر الإسـلام، إلى عهد صلاح الديـن، إلى تاريخ المماليـك، إلى زمن محمد علي وإبراهيـم الفاتح... إلى اليـوم الذي مزَّقـت فيه الحـرب العظمـى دول الإسلام، وتوزَّعتهـا أطماع السياسة الأوروبيَّة!

بيننـا وبينها وحـدة الدِّين، وآصرة اللغة، وعاطفة الجـوار، ووَاشجة[1] الدَّم والنَّسـب من لدن عمـرو بن العاص إلى عهد الفـاروق لا يفصلها عن مصر فاصلٌ من جبلٍ أو بحرٍ أو حدٍّ مصنوعٍ، إلا أن تكون القناة الملعونة في التاريخ -قنـاة السويس- التـي كان إنشاؤها غُنماً للعالم وغُرْمـاً على مصر؛ ومنها كان الرَّمـز الأول للقطيعة بين مصر وبلاد الإسلام، حين شاعت على ألسنة المصريـين تلك الخدعة المأثورة: (مصـر قطعةٌ من أوروبا!) فكانت دسيسةً سياسيةً بارعةً، فرَّقت بين الأخوين لأبٍ وأمٍ حيناً من الزَّمان!

***

ركبـتُ القطار من محطة القاهرة في منتصـف السَّاعة السَّادسة من مساء السبـت 7 مايـو وفي وهمي أنني مسافرٌ إلى بلدٍ بعيد؛ فما أشرق صباح اليوم التـالي حتى كنـتُ في مدينة القدس المطهَّرة عاصمـة فلسطين، قبل أن تبلغ

(1) قَرَابَة.

السَّاعــة التَّاسعــة. ست عشــرة ساعةً بين القاهرة والقدس، في قطار يدبُّ علــى رمال الصحراء دبيب السُّلحفاة بطيئاً وانياً ويقف في الطريق أكثر من أربع ساعاتٍ.

إنَّ المسافـر مــن القاهرة إلى بعض الأقاليم الجنوبية مــن مصر نفسها لا يبلغها في ست عشرة ساعةً في القطار السريع؛ وإنك مع ذلك لتسألُ نفسك: كـم مصريًّا رحل إلى هذه البــلاد الشقيقة ليتعرَّف إلى أهله من أهلها؟ فلا يأتيــك الجــواب بما يؤكـد لك معنىً من معــاني الإخاء والقُرْبــى بين مصر وفلسطين!

لمــاذا لماذا؟ لأن السِّياســة التي تسيطر على مصر وفلسطــين لا يُرضيها أن تكــون بين مصر وفلسطين رابطةٌ من الودِّ والإخاء.. وقد بلغت هذه السِّياسة في مصــر مــا لم تبلغه هنــاك، فنسي المصريــون إخوانهــم في فلسطين ولم ينســ الفلسطينيون إخوانهم على ضفاف النيل، وفي كل سنة يَفِدُ إلى مصر مئــاتٌ من شباب فلسطين، وأدباء فلسطــين وتُجَّار فلسطين ليمتعوا أنفسهم برؤيــة إخوانهم وأهليهــم في وادي النيل، ثم يعودون إلــى بلادهم ينتظرون ردَّ الجميــل فلا يجدون الجميل! ست عشرة ساعةً، لــو اطَّرد الطَّريق وقلَّت محطــات الانتظار ما بلغت ثماني ساعات، هــي كل ما بين مصر وفلسطين. ما أقرب وما أبعد!

***

وصــل بــي القطار المصــري إلى محطة القنطــرة على القنــاة، في منتصف التاسعــة مســاءً؛ وركبتُ من ثمــة قطارَ فلسطــين، فلم يتحــرك للسير قبل منتصــف الثانية عشرة، ثم مضى بنا بين كثبان الرمل في صحراء سينا إلى غايتــه؛ فلــم يكن لنا مع الظــلام الدَّامس ووحدة مناظر الصحــراء، إلا أنَّ

نـأوي إلى مضاجعنا -غير الوثيرة- فمـا استيقظتُ إلا في الخامسة صباحاً وقد اجتزنا الحدود المصريَّة ووقف القطار في (غَزَّة) أولى مدائن فلسطين. ونبَّهتنـي أصواتُ الباعة على رصيف المحطـة؛ ففتحتُ النافذة لأستقبل أول شعاعـة من أشعة الشَّمس البازغة من وراء الجبال، تداعب أجفان النائمين خلـف نوافذ القطار؛ وهـبَّ النَّسيم ندياً معطَّراً بأزهـار النارنج كأنه يحمل أريجـاً من أنفاس أهـل الجنَّة، وسرحت الطرف فيما أمامـي؛ فإذا صفحةٌ مشرقـةٌ تتحـدَّث عن جمـال الطَّبيعة وقـدرة الخلَّاق، لم يـرَ المصريون لها شبيهاً فيما رأوا من جمال الطَّبيعة المصريَّة بين الإسكندرية وأسوان.

بيـوتٌ مبعـثرةٌ على رؤوس التِّلال وفي سفـوح الجبل، وسهـولٌ رمليةٌ فيحاءُ قد نبتـت فيها شجيرات القمح والشعير، وحدائـق خُضْر ناضرةٌ قد ملأتها أشجـار البرتقال والنـارنج والمشمش، ونخلـةٌ قائمةٌ هنا، وخيمـةٌ مضروبةٌ هناك، وكـرومٌ زاحفة على الأرض، وأعشابٌ ناميةٌ علـى الصَّخر، وأخاديد خدَّدتهـا الأمطـار في خدود الجبـال؛ والقطـار يسير في طريـق ملتوية بين منحنيات الجبـال، صاعداً منحدراً، ومشرقاً مغربـاً؛ كأنما اتخذوا له هذا الطَّريـق ليجلوا على المسافر كل ما يمكـن أن تجتليه العين من رواء الطبيعة في فلسطين؛ فما مللتُ النظر إلى هذه المشاهد الفاتنة واقفاً في نافذة القطار ثـلاث ساعات، حتى وصلتُ إلى محطة (اللِّـدِّ) في السَّاعة الثَّامنة صباحاً؛ ومحطـة اللِّدِّ هي المحطـة المركزية في فلسطين، ومنها تتفـرَّع سكَّة الحديد فروعهـا إلى مختلـف أنحاء البلاد، أو يستمر القطـار سائراً في طريقه إلى دمشق...

وانتظـرتُ في محطـة اللِّدِّ زهاءَ ساعة، قبل أن يتحـول بي القطار في طريقه إلى القدس المطهَّرة؛ وفي الطَّريق بين اللِّدِّ والقدس، صحبني شابٌّ من أدباء فلسطـين أُنسيتُ اسمه؛ فأخذ معي في حديثٍ طويلٍ عن السِّياسة وآخر أنباء

الثَّــورة ومصــير فلسطين؛ وكان يتحــدث إليَّ في حماسةٍ وقــوَّةٍ وانفعالٍ كأنه خطيــبٌ على رأس كتيبــةٍ يُحمِّسها الجهاد؛ فوالله ما أدري أكانت شدةً أسره في الحديث، أم روعة المناظر من حولي أحبَّ إليَّ...

واقتربنــا من بيت المقدس فسكَــتَ مُحدِّثي قليلاً ثم سأل: هل لي أنْ أتشرَّف بمعرفــة سيــدي؟ قلــتُ: مصريٌّ؛ قال: نعــم؛ لقد عرفتُ ذلــك من حديثك؛ ولكــن... يُخيَّل إليَّ أنِّي أعرف أكثر من ذلك عن سيدي... ولولا أن الجرائد تقول إنَّ الأستاذ سعيد العريان لا يقدم إلى القدس إلا غداً، لقلتُ إنَّك هو... إنَّني أعرفه بصورته من مجلة الرسالة...!

وكانتْ أول تحية كريمة يلقاني بها أديبٌ من شباب فلسطين، وكانت مفاجأة؛ فأحســستُ شيئــاً من الخجل والارتباك، لم أجد معهمــا إلا أن أمدَّ يديَّ إلى صحيفــةٍ بيدِهِ مستأذناً، فدفعهــا إليَّ؛ وفيها قرأت أنني قادم إلى القدس في صبــاح الغد... وهــو الموعد الذي كنــتُ حدَّدتُّه من قبل لمحطَّــة الإذاعة، ثم فكرتُ بالسفر قبل ميعادي بيوم...

إنني لم أكن أُقدِّر -وأنا مَنْ أنا في نفسي- أنني سأجد من يعرفني في فلسطين أو يهتم لمقدمي؛ ولو أنني قد بلغتُ بنفسي من الغُلُو أقصى ما تبلغ إليه أمنية شــاب مثلي، لكان ما رأيتُ من حســن استقبال المَقْدسيِّين وحفاوتهم فوق ما تبلــغ مُنية المُتمنِّي، ولا أزهــو بنفسي فأزعم أنني أهلٌ لبعض ما لقيتُ؛ ولكنَّه كرم الفلسطينيين العرب يأبى إلا أن يستعلن في كلِّ مناسبةٍ ولكلِّ مجالٍ.

***

وفي دار شيــخ أدباء العروبة الأستاذ محمــد إسعاف النشاشيبي كان مقامي طــول المدة التي قضيتُها في فلسطين. لقد دخلتُ فلسطين وأنا خفيف الظَّهر فمــا فارقتها حتى كان عليَّ من الدَّين لهذا الرَّجل الكريم ما ينوءُ به كاهلي؛ فشكراً له، ثم شكراً، ثم شكراً... ومعذرةً إليه إنْ عجزت عن الوفاء!

وصحبتني طائفةٌ كريمةٌ من الأدباء في غَدْوِي ورواحي، لتهيئ لي أسباب التمتُّع في الرِّحلة بين المشاهد المقدَّسة والبيوت الأثرية، فزُرتُ المسجد الأقصى، وقبة الصَّخرة ومصلى عمر، وكنيسة القيامة، ومصعد المسيح، وبيت لحم، والمتحف الإسلامي، وكلية الرَّوضة، والنَّادي المصري.

وتمتَّعتُ برحلات عدة كان رفيقي في أكثرها الأستاذ الأديب إبراهيم طوقان وكيل القسم العربيِّ في محطَّة الإذاعة. ولن أنسى ما حييتُ فضله وفضل الأصدقاء الكرام: الدكتور إسحاق الحسينيِّ، والشيخ يعقوب البخاريِّ أفندي، والأستاذين داود حمدان، وعبدالحميد يس، وغيرهم من أدباء فلسطين وأهل الرأي والجميل.

***

وإذا كان لي أن أذكر شيئاً بخصوصيته في هذه الرحلة؛ فإن اليوم الذي خطبتُ فيه في كلية روضة المعارف الإسلامية بالقدس سيظل أبقى أثراً وأخلد ذكراً بين أيامي.

وكلية روضة المعارف الإسلامية في القدس، هي مدرسة حرَّة يُشرف على شؤونها المجلس الإسلامي الأعلى، ولها منهجٌ خاصٌ يُعدُّ شباب العرب ليكونوا في مستقبل أيامهم رجال العربية والإسلام، ومدير هذه المدرسة هو الأستاذ عبداللطيف الحسيني ورئيسها الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصالح أفندي، وتضمُّ بضع مئاتٍ من فتيان العرب جمعتهم إلى منهل في الثقافة العربية الإسلامية أكثر ملاءمةً لحال البلاد في هذه الأيام. وفيها طائفةٌ من المُدرِّسين الأَكْفَاء عرفتُ منهم الأستاذ عبدالفتاح لاشين المصري، والأستاذ عبدالرحمن الكيالي الفلسطيني، وهما من خريجي مدرسة دار العلوم في مصر.

زُرتُ الكلية صباح الاثنين 9 مايو مع الأستاذ طوقان؛ وما بُدَّ لمن يزور فلسطين من أهل العربية من زيارة هذه الكلية... وقضيتُ ساعةً... ثم انصرفتُ على موعدٍ للغداء وإلقاء محاضرة في بهو المحاضرات بالكلية عن: (المثل الأعلى للشاب المسلم) بعد ظهر الأربعاء.

لا تُحدِّثني عن شباب مصر وطلبة العلم في مصر إذا ذُكر شباب فلسطين وطلبة العلم في كلية الروضة، هنا شبابٌ يُحسنون الزِّينة ويفتنون في وسائل الأناقة والتجمُّل، وهناك رجالٌ قبل سنِّ الرِّجال يعرفون لأي غاية يتعلَّمون، ويُفكِّرون لغدهم قبل أن يُفكِّروا في مطالب الصِّبا وأمانيِّ الشَّباب... وعرفتُ أول مَنْ عرفتُ في فلسطين، شبابها العربي المسلم في كلية الروضة...

***

أسبوعٌ في فِلسطِين (2)[1]

لن أتحدَّث عن مشاهدات في هذه البلاد رأيتُها بعينيَّ، فذلك شيءٌ يستطيعه كلُّ ذي عينين؛ وفلسطين اليوم هي فلسطين التي رآها من قبلي عشراتٌ من الكُتَّاب والرَّحَّالين وتحدثوا عن مشاهدها وآثارها ومعالمها؛ فهذا المسجد الأقصى، وهذه قبة الصخرة، وذاك مهد المسيح في بيت لحم، وذلك -فيما يزعمون- مصعده ومسْراه على الطُّور، وهذا حائط البراق، وذاك مصلَّى عمر، وتلك كنيسة القيامة... مشاهد كما وصف الواصفون وتحدَّث الرحَّالون وتغنَّى الشعراء؛ فليس بي من حاجة إلى الإعادة والتكرار. ولكني سأتحدث عن المشاهدات الأخرى... مشاهداتٌ رأيتُها بفكري وسمعتُ صداها في نفسي، وتحدَّث معناها إلى قلبي...

(1) الرسالة، العدد 256، بتاريخ 30 مايو 1938.

لقد أحسستُ أول ما هبطتُ هذه البلاد كأنما نَضَوْتُ[1] عن جسدي ثوباً كان يحتويني فأنا فيه غيرُ مَن أنا: حسّاً ومعنىً وفكرة؛ فما ألقيتُه عن جسدي حتى تواثبت نفسي منطلقةً على سجيتها في عالم غير محدود، لا تعرفه ولا تُنكره، ولكنها فيه هي شيءٌ غير ما هي كانت في هذا الثوب الذي يضمُّ أطرافي منذ ثلاثين سنةً أو يزيد...

أمصريٌّ أنا؟ لا؛ إنَّ وطني لأكبر من ذاك. إنَّ لي أهلاً هنا وأهلاً هناك. إنَّ تراث الأجيال ليتحرَّك في دمي الساعة فيذكرني ما لم أكن أعرف.. ما هذا...؟ لكأن لي في كل مكان ذكرى قريبة وما رأته عيناي قبل أن تراه عيناي.

إنَّ قوَّةَ من وراء التاريخ تربطني إلى هذا المكان، وتستوقفني عند ذاك الأثر، وتقف بي عند ذلك المنعطف، وتُذكِّرني بشيءٍ في هذا الحيِّ.. إنَّ هنا قبساً من روح أعرفها ترفُّ حولي، ونفحةً من عطرٍ أتشمَّمها تلامس رُوحي، وإنَّ لي هنا لخفقةَ قلبٍ، وإنَّ لي هناك لدمعةَ عينٍ، وإنني لأُلقي خواطر وذكريات لم تكن من خواطري وذكرياتي؛ وإنني لأحسُّ... وإنني لأشعر... فما أشكُّ أن لي تاريخاً قبل تاريخي في هذا المكان، وأن لي ذكريات أبعدَ من ذكرياتي في هذا الحيِّ، وأنَّ الماضي الذي كان قبل أن أكون، هو إرثٌ في دمي تحدَّر إليَّ في أصلاب أسلافي ذكرياتٍ غامضةً لا تكاد تبين إلا خفقات في القلب وزفرات في الفؤاد...!

أيها البلد الطيب!

أيتها الأرض المقدسة!

لقد عرفتُ بك أهلي ووطني وتاريخ قومي.. لستُ من فرعون ولا فرعون مني.. كفرتُ بالوطنية إنْ لم أؤمن بأني منكِ في أهلي ووطني...!

---

(1) نزعتُ وخلعتُ.

يا بلاد العربية والإسلام، انشري لواءَكِ وابعثي ماضيك حتى تنتظم رايتُك كلَّ مسلم وكلَّ عربيٍّ!

يا أهل العربية والإسلام، لستُم من الوطنيَّة في شيءٍ حتى تؤمنوا أن وطنكم هو كل البلاد العربية والإسلام!

يــا أهلي وإخواني على ضفاف النيل، لقــد عققتم إخوتكم عقوقاً غير جميلٍ حين زعمتم أن أَرُومتكم غير الأَرُومة(1) التي أنجبت عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح!

يا أساتذة المدارس المصريَّة، لقد ظلمتم التاريخ ظلماً غير قليلٍ حين ذهبتم تزعمون لنا منذ كنا أننا من سلالة خفرع ومينا وآمون!

ويــا قومــي وعشيرتي هناك، معــذرةً إليكم مما كان، وعهداً علــيَّ أنْ أكون، وإلى اللقاء! إلى اللقاء تحت راية الإسلام...!

***

هــذا شاب من أدباء فلسطــين يُحدِّثني عن مصر، وعــن أدباء مصر، وعن السياسة في مصر، وعن النشاط العلمي في مصر، حديث العارف المتتبِّع، لا يفوتــه شيءٌ مما يعرفه المصريون عــن أنفسهم؛ بل مما لا يعرفه المصريون أنفسهم... فماذا يعرف المصريون عن فلسطين؟

وهــذه جرائــد مصر، ومجــلات مصر ومطبوعــات مصر، تمــلأ السوق في فلسطــين؛ فهــي في كل دارٍ، وفي يــد كل قــارئٍ.. فماذا يقــرأ المصريون من جرائد فلسطين، وماذا يعرفون عن أدباء فلسطين؟

(مصــر زعيمة الشرق العربي!)، هــذه عبارةٌ تسمعها بين كل اثنين يتحدَّثان عــن مصر والأقطار العربيــة؛ فهل عقلها من قالها؟ وهــل عَناها من تحدَّث

(1) الأَرُومَة: الأصل.

بها؟... أمَّا هناك فَنَعم؛ فما يقولها عربيٌّ في غير مصر إلا مؤمناً بها مستيقناً حقيقتها؛ وأمَّا هنا فهل تسمعها إلا في معرض الزهو والعُجْب والخيلاء...؟

مصر زعيمة الأقطار العربية، ما في ذلك ريبٌ ولا جدالٌ؛ ولكنها زعامة الجاه والغنى والصيت البعيد... زعامة ليس لها تكاليفُ، وليس عليها واجباتٌ، وليس من ورائها مشقةٌ... زعامة الدعاوى الفارغة، والتشدُّق الكاذب، ولغو الأحاديث... وإلا فهل ذَكرت مصر ما عليها للأقطار العربية حين سرَّها أن يقول القائلون إن مصر زعيمة الأقطار العربية؟

ومعذرة يا بلادي!

إنك لأهلٌ للزعامة والجاه والسلطان؛ ولكن... ولكنك لا تريدين أن تفرضي على نفسك ما تفرضه الزعامة على أهلها من مشقات وتكاليف، وهيهات هيهات أن تدوم الزعامة لزعيم لا يفرض على نفسه أن يبذل أكثر مما ينتفع... وفي الحياة عِبَرٌ وأمثالٌ...

***

وجلستُ في مجلس طائفة من الأدباء أستمع إلى أحاديثهم ومداولاتهم، فإذا شبابٌ هناك يسبقون الكهول عندنا في البحث والمطالعة والاستقراء، وإذا علمٌ وأدبٌ واطلاعٌ، وإذا طرائق في البحث لا يعرفها إلا الأقلُّون من أدباء المصريين... وسمعتُ أسماء كتب مصرية جديدة في السوق، لم يعرفها بعدُ في مصر إلا مؤلفها والصفوةُ من أصحابه، ودار جدالٍ حول معارك أدبية في جرائد مصر لم يكن مبلغ علمي بها إلا عنوانها وكاتبها... وجرت مُصاولاتٌ، وتداولتْ آراءٌ، وتنوَّعت أساليب الحديث؛ وخرجتُ بالصمت عن لا ونعم، وطارت خواطري إلى مصر، وإلى مجالس الأدباء في مصر، وإلى حظِّ الأدب والأدباء في مصر؛ وأطرقتُ من حياء...

مصر زعيمة الأقطار العربية. نعم، إن فيها لكُتَّاباً وأدباء وشعراء، وإن فيها

لجرائـد وكتباً ومجـلات، وإنَّ فيها لتعليمـاً ومدارس وجامعتـين، وإنَّ فيها لمطابـعَ تُخرج كل سنة مئات من الكتب في مختلـف العلوم والفنون والآداب، ولكن... ولكن مصر ليس فيها قراء...

مصـر!... إنَّ لمصـر فضلاً على العالم العربي لا ينكـره جاحدٌ؛ ولكنه فضل المطبعة والجريدة والكتاب لا فضل المصريين...

مصـر...! هـل يعلـم كُتَّابها وشعراؤهـا ومؤلفوهـا أنَّ كتبهـم ودواوينهم ومؤلفاتهم أشهر وأذِيع في الأقطار العربية منها في بلادهم؟

رجـاء إليكم أيهـا الكُتَّاب والشعـراء والمؤلفـون: لا تسمُّوهـا زعيمة الشرق العربي؛ ولكن سمُّوها (مطبعة) الشرق العربي!

***

ولا تجلسُ إلى عربيٍّ في فلسطين إلا سمعتَ له حديثاً في سياسة بلاده، ورأياً في سياسـة بـلاده، وحماسةً في الدفـاع عن حق بـلاده. وفي مصر (كانت) حركـةٌ وطنيَّـةٌ، وكان لها حدّةٌ وشدَّة، فما طغت في يـوم من أيامها على آراء المصريـين ولا فرضـت سلطانها علـى مجالسهم بمقدار مـا شغلت الحركة الفلسطينيـة خواطـر العرب في فلسطـين. وتسأل: لمـاذا؟ فيجيبك قائلهم: «لقد كانت ثورتكـم الوطنية في مصر للاستقلال، والاستقلال عندكم ترفٌ سياسـيٌّ؛ ولكن ثورتنا الوطنيَّـة في فلسطين للحيـاة. إنَّ السياسة العامة في فلسطـين هي سياسة كل فرد في أهله، وفي دينه، وفي ولده، وفي حقله، وفيما يملك؛ إننا إنْ لم نكافح كفاحاً الموت في هذه الثورة الوطنية، فلن تجد منا غداً عربياً واحداً في فلسطين...!».

وصـدق القائـل؛ فمـا في فلسطـين اليوم ثـورة وطنية كبعض مـا نعرف من الثـورات السياسيـة في التاريخ، ولكنه جهاد الأحيـاء للحياة، كما يجاهدون

للطعام والشراب، فإمَّا ظفروا فعاشوا في بلادهم آمنين كما يعيش كل شعبٍ في بلاده؛ وإمَّا... وإمَّا كانت فلسطين هي الأندلس الثانية: لا يُذكر فيها اسم الله ولا ينطق فيها بكلمة التوحيد...!

وحاولتُ أن أعرف في فلسطين من حال المرأة العربية المسلمة التي سمعت بجهادها وبسالتها فيما تنقل جرائدنا من أخبار الثورة العربية في فلسطين؛ فإذا بيني وبينها حجاب؛ فلا ترى في الطريق واحدة منهن في مثل حال أختها المصريَّة: تسير في الطريق شبه عارية في ثوب مهلهلٍ إن لم يشِف يصفْ، ولكن وجوهٌ إلا يكن عليها حجاب فإن فيها حياءً... إلا وجوه الغواني من بنات صهيون ونساء المهاجرين.

***

ومحطة الإذاعة في فلسطين غيرها في مصر؛ فهي هناك مصلحة حكومية وهنا شركة يربطها بالحكومة عقد تجاري؛ على أن أول ما تلاحظه من الفرق بين المحطتين هو عناية محطة فلسطين بالأدب والأدباء وإغفال شأنهما في مصر؛ فلولا محاضرة أو محاضرات يذيعها كل سنة من محطة القاهرة الأساتذة طه حسين والمازني وهيكل والبشري -ليس غير- لما درى السامع من بعيد أن في مصر أدباً وأدباء. على أن أكثر ما تذيعه القاهرة من موضوعات الأدب بعيد عن مناسباته؛ فما هو إلا إعلانٌ عن كتاب، أو تعريفٌ بإنسان، أو حديثٌ معادٌ، أو خطبةٌ منبريةٌ ذات مواعظَ وأمثالٍ... أو فكاهةٌ رخيصةٌ... وقلَّما يتنبَّه القائمون على تحضير برامج الإذاعة في محطة القاهرة، إلى مناسبةٍ من المناسبات الأدبية العامة ليجعلوا لها موضعها من البرنامج في ميعاده، إلَّا أن يتقدَّم إلى ذلك من يتقدَّم من الأدباء وفي يده موضوعه كأنه طالبُ إحسانٍ!

وأحسب ذلك يرجع إلى سببين: أولهما أن الأدب في مصر عامَّةً ليس له سوقٌ نافقةٌ[1] بحيث يُغري محطة القاهرة بالحرص على إرضاء مستمعيه. والثاني أنه ليس في القائمين على شؤون محطة القاهرة أديب متخصص له في الأدب معرفة واطلاع يحملانه على أن يَعُد نفسه واحداً من الأسرة الأدبية في مصر بحيث يعرف اتجاه الجماعة في الأدب فيسير مع تطوراتها على نهج سواء.

على أن الإذاعة اليوم هي وسيلة من إحدى الوسائل في نشر الثقافة وتوجيه الرأي العام؛ فما ينبغي أن يحملها انصراف جمهور المستمعين عن الأدب على إغفاله؛ فإن لها من السلطان ما تستطيع به أن تحمل مستمعيها على العناية بالأدب والأدباء لو سارت على برنامج مرسوم إلى هدف مقصود. ثم إن مصر ليست هي وحدها التي تستمع إلى محطة القاهرة، ولكنَّ أقطاراً أخرى من أقطار العربية لها علينا من الحقوق الأدبية ما يحملنا على إرضاء مستمعيها وكلهم يرفعون الأدب أسمى مكان.

وإذ ذكرت هذا فما ينبغي أن يفوتني ذِكر الشاعر الأديب الأستاذ إبراهيم طوقان وكيل القسم العربي في محطة القدس؛ فإنه من خيرة شباب فلسطين ثقافةً وأدباً وتحصيلاً، وله في الأدب آثارٌ باقيةٌ؛ وبمثله في محطة القاهرة يمكن أن نتلافى هذا التقصير في حق الأدب والأدباء.

***

والمصريون في فلسطين عددٌ غير قليل يعيشون في أمن وسعة ولهم في القدس نادٍ جميلٌ في حيٍّ عامرٍ يتبعه مدرسةٌ ليليةٌ وفرقة كشَّافة، دعاني إلى زيارته سكرتيره الأستاذ عبد الفتاح لاشين المصري المدرس بكلية الروضة في مساء

(1) السوقُ النافقةُ هي الرائجةُ غير الكاسدةِ.

الأربعاء 11 مايو؛ فذهبتُ إليه مع الأصدقاء الأساتذة: عبدالرحمن الكيالي، والشيخ يعقوب البخاري، وداود حمدان؛ فوجدت النادي مزيناً أبدع زينة احتفالاً بالمولد النبوي، وثمة شيوخ يقرأون قصة المولد، والنادي مزدحم بالمصريين وضيوفهم من الفلسطينيين، يستمعون إلى ترتيل القارئ في خشوعٍ وإيمانٍ؛ واستقبلتنا فرقة الكشافة على الباب استقبالاً مصرياً كريماً، ثم ودَّعَنا أعضاء النادي بعد مجلسٍ قصيرٍ، بكثيرٍ من الحفاوة والإكرام.

***

وكان آخر طوافي في القدس، في القنصلية المصريَّة، وما أُنكر أنه كان عليَّ أن أجعل أوَّل خُطاي إليها غداةَ مَقْدِمي، وقد كان ذلك في نفسي، لولا أنَّني كان لا بد لي من رفيقٍ يُرشدني إلى الطريق، وكان احتياجي إلى الرفيق هو الذي جعل زيارتي للقنصلية آخر طوافي؛ فمعذرةً إلى الأستاذ الأديب محمد حامد بك قنصل مصر في فلسطين الذي جعل أول لقائه إيَّانا عتاباً كريماً كان له في نفسي موقعٌ جميلٌ، وكانت تحيةً صريحةً لا تكلُّف فيها ولا رياء.

زرتُ القنصلية في مساء الأربعاء 11 مايو، فوافقنا الأستاذ متري بك وكيل القنصل خارجاً لبعض شأنه؛ فما رآنا حتى بدَأنا بالتحية، وتقدَّمنا إلى دار القنصلية، فقضينا في كرمه وقتاً ما ثم لم يلبث أن حضر القنصل، فما درى بمقدمنا حتى صعد إلى غرفته محتجاً على أن جعلتُ زيارته آخر طوافي؛ ثم عاوده كرم المصري فأرسل يدعونا إليه...

وكانت جلسةً ممتعةً، شهدتُ فيها ما لم أكن أتوقع، ولقيتُ ولقي أصحابي من عطف الأستاذ حامد بك وكرمه وأدبه ما أحرص على ذكرياته كأجمل ما شاهدتُ في فلسطين.

والأستاذ حامد بك أديبٌ واسع الاطلاع على رغم منصبه السياسي؛ وإنه

لتوفيقٌ عجيبٌ أن يكون قنصلنا في فلسطين العربية له مثل حظ الأستاذ حامد بك من الاطلاع في الأدب وفي الثقافة العربية، ولقد عجبت -شهد الله- أن يبلغ هذا المبلغ في الأدب مصريٌّ من رجال السياسة؛ وكان آخر ما يدور في خاطري حين هممت بزيارة القنصلية أن يكون لي هناك حديثٌ في الأدب وفي شؤون الأدباء كالذي دار في مجلس القنصل الأديب...

وأكثر من يَذكر الفلسطينيون من رجالات مصر الراحلين: محمد عبده، ورشيد رضا، والرافعي، ولهم في نفوسهم منزلة من التقديس تضعهم في صفِّ الخالدين من أبطال العربية والإسلام.

وأحبُّ كُتّاب العربية إليهم أسرة (الرسالة)، فهم يعرفون كُتَّابها فرداً فرداً، ويقرأون لها ما يكتبون بشوق، وقلَّما تجد شاباً من شباب فلسطين لا يقرأ (الرسالة) ويحتفظ بمجموعاتها. وهم يعجبون أشد العجب حين يسمعون أن طائفةً من شباب مصر لا يقرأون (الرسالة)! وأحسب لو أن أملهم تحقق وصارت نسبة قرَّاء (الرسالة) من المصريين تعدل نسبتهم في فلسطين لكان على (الرسالة) أن تطبع من كل عددٍ مائة ألفٍ في الأسبوع...

وأكثر مَنْ يذكرون من الكُتَّاب المصريين هم الأساتذة: أحمد أمين، وعزَّام، والمازني، والزَّيَّات، وهيكل؛ ولولا سابقة للدكتور هيكل في الدعوة إلى الفرعونية لكان أحب الكُتَّاب المعاصرين إلى أهل فلسطين؛ فما يغيظهم شيءٌ فيما تكتب الصحف المصريَّة ما تغيظهم هذه الدعوة، وما يرونها إلا وسيلةً إلى تمزيق الوحدة العربية التي يدعون إليها ويرشِّحون مصر لزعامتها، وإلا سبباً إلى تقطيع الأواصر بين مصر وبلاد الإسلام.

وركبتُ القطار عائداً من محطة (اللَّد)، بعد زيارةٍ قصيرةٍ للأخ الأديب داود حمدان، ورياضةٍ ممتعةٍ في سيارة الأستاذ النشاشيي بين اللَّدِّ وبيت

المقدس.

وتحــرَّك بي القطار عائــداً إلى مصر ظهــر يوم الخميســ 12 مايو، فبلغتُ محطــة القنطرة قبيل الغروب... ومعي مــن الذكريات لهذه البلاد المقدسة أثمن ما يحرص عليه إنسانٌ...

أيتهــا الأرض الطيبة! أيها الإخوان الكرام! يا بني قومي هناك؛ وداعاً وداعاً إلى لقاءٍ قريبٍ.

والسلام عليكم ورحمة الله

***

دعيني أنام[1]

دعيني أنام!

إنَّ عينيَّ لم تذوقا طعم الكَرَى منذ بعيد!

سنوات وسنوات، وأنا دائب السرى في هذه الطريق أُفتِّش عن نفسي فلا أجد نفســي، وأنشد سعادتي فلا أجد إلا شِقْوة النفس وظمأ الروح وقلق الضمير! والطريــق لا تنتهــي إلى غاية، والعــثرات تتكاءد الســالــك في كل منعرج وكل ثنية!

دعيني أنام!

فهــل رأيــت السعادة إلا حلمــاً هنيئاً يتخايل للنفس في لحظــة ناعسةٍ ضرب النومُ على آذانها في ليلٍ مُطبِقٍ؟

مــا أجمل هذه الفراشة تتواثــب في مطارفها الموشّاة على أعين الناس! ولكن هيهات أن تنالها يد! كم جهدت جهدي في اللحاق بها فما بلغتُ...!

(1) الرسالة، العدد 292، 6 فبراير 1939.

دعينـــي أنـــام! لعلي أن أنالهـــا في سِنةٍ حالمةٍ تبلغ بي مـــا لا مَبلغ إليه في يقظة الحياة!

دعيني، دعيني...!

إنني وجدت نفسي هنا، وطالما نشدت نفسي فما وجدتها...!

إنَّ بـــي حنيناً إلى هـــذا الفراش الدافئ بعد طول السُّـــرَى وجهد السهر وكدِّ الطريق!

افتحي عينيك يا عزيزتي على حقائق هذا الوجود ثم خبِّريني... ذكِّريني ما كان من ماضيّ، فقد أنسانيه ما ترادف عليَّ من أحداث الزمان!

هـــل تذكريـــن يا عزيزتي تلك الأيام البعيدة، يوم كنـــا وليس لنا ماضٍ نأسَى عليه، ولا مستقبلٌ نتطلَّع إليه، والدنيا تدور بالناس في حلقتها المفرغة وتدور بنا، فما يعنينا شيءٌ من الدنيا ومن الناس، وما نشعر من الزمان إلا باليوم الذي نعيش فيه، هو كل تاريخنا في الحياة لا ماضيَ له ولا آتٍ...؟

ذلك زمانٌ كان، فما له من معاد!

مَن كنتُ أنا عند الناس يومئذٍ ومَنْ كنتِ؟

هل كنا يومئذ إلا فتاة وفتى قد ألَّف الحبُّ بين قلبيهما! فما يُرَيان في الطريق إلا ذراعـــاً إلى ذراع، وخطوةً إلى خطوة، وقلباً يعطف على قلب، وروحاً تهفو إلـــى روحٍ، وعلـــى الشفاه همســـات تُخافت بها، وفي العيـــون نظرات تتناجى. والناس تنظر إلينا فما يهمنا شيء من نظرات الناس ولا من حديث الناس؛ لأننا كنا يومئذ نعيش في أنفسنا بعيدين عن دنيا الناس...

هل تذكرين...؟

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة... وكنا صغيرين...!

وجلسنا ذات يوم في حديقة على الشاطئ... وكانت يدك بين يديَّ وقد أطرق كلانا، وتراءى لنا في لحظة حلم رائع سعيد تجاوز بنا الزمان والمكان إلى حيث لم يكن لنا عهد، يظلنا سقفٌ واحدٌ في دويرة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرق من أحلام الشباب... وظَلّتِ في إطراقك وظللتُ، نتناجى ونتبادل الأفكار صامتين؛ فما كانت بي حاجة لأحدِّثك عما في نفسي ولا كانت بك حاجة؛ وتفاهمنا على صمت... ونظرتُ في عينيك ونظرتِ، فتضرَّمَتْ وجنتاكِ من حياء، وأحسستُ يدكِ تختلج بين يديَّ...

ونهضنا صامتين فأوصلتك إلى دارك وعدتُ وحيداً إلى داري وأنا أُفكِّر...

وعرفنا من يومئذٍ أن غداً هو يومٌ من عمر الزمان؛ وما كان يعنينا قبل إلا حاضرنا الذي ننعم به...

أما زلتِ تذكرين يا عزيزتي؟

ولمَّا ضُرب الحجاب بيننا وقامت دونه التقاليد، تلفَّت القلب ينظر؛ ولزمت الوحدة أياماً أعرض ذكريات الماضي ولهفة الحاضر وأمل المستقبل فعرفت...

عرفت يومئذ أن حقيقة الزمان ليست هي في هذا الحاضر، ولا في الغد المنتظر؛ ولكنها في اليوم الذي مضى ولا سبيل إليه... أمس!

حينما يكون معنى الزمان في نفس الحي هو اليوم الذي يعيش فيه وحسب، فهو في حقيقة الحياة ومعنى السعادة؛ فإذا سوَّلت لها الأمانيُّ أن يتعجَّل أيامه فيتطلَّع إلى ما قد يكون في غد، فقد آذنته الدنيا بيوم يُطرد فيه من جنة السعادة نادماً أسوانَ... ثم لا تكون إلا الثالثة، حين يتذكر أن له ماضياً كان وطواه الزمن؛ فما هو يومئذ حيٌّ يعيش في حاضره، ولا آملٌ يفكر في مستقبله؛ ولكنه ذكرى بلا رجاء، ولهفة مالها انقضاء!

الحاضـــر هو الحقيقـــة، هو السعادة، هـــو الحياة؛ وما الغـــد إلا وهمٌ يدعمه خيال الحيِّ ليفر إليه من حاضره الذي هو به حيٌّ يسعد بالحياة؛ وما الأمس إلا الجزء الذي مات منا وسبقنا إلى الفناء!

ولكن الزمان على ذلك هو أمس، واليوم، والغد جميعاً: هذه الثلاثة هي حياة الحيِّ وعمر الزمان؛ لا سبيل إلى تجاهل ذلك بعد عرفانه!

ليتني لم أعلم! ليتني لم أعلم!

ليتني ظللت حياتي أجهل معنى الزمان؛ لا أفكر فيما كان، ولا أتوقع ما يكون، ولا أعرف من عمر الزمان إلا اللحظة التي أعيش فيها!

وتلاقينـــا مرةً علـــى ميعاد... هل تذكرين يا عزيزتـــي؟... وجلستُ أقرأ لك فصـــلاً من كتـــاب كان معي؛ فتندَّت عينـــاك بالدمع!... إنني مـــا أزال أذكر ذلـــك كأنه أمس، على أنَّ بيني وبينه عشر سنين!... لقد قلتِ لي يومئذٍ كلمةً ما زال صداها يرنُّ في أُذُني:

«يـــا عزيـــزي! ليس في البشريـــة كلها من يقـــدر على خلق المعجـــزة التي تهزُّ النفس من أعماقها غير الأديب البليغ».

وقلتِ كلاماً آخر لا أذكره، ولكن أثره ما زال يعمل في نفسي؛ فجهدت جهدي لأخلـــق المعجزة التـــي تهزُّ النفس مـــن أعماقها... ولم أذق طعـــم الكَرَى من يومئذٍ...!

ليـــت شعري، هل جـــاءك -وبيني وبينك حجاب التقاليـــد- نبأ ما كنت أبذل مـــنْ أعصابي ومنْ دمي في سبيل هذه الغاية حرصاً على أن أكون يوم اللقاء كما تريدين أن أكون؟

يا ليت يا عزيزتي، يا ليت!

عشـــر سنين من عمر الشباب وأنا أُخرج للناس كل يوم جديداً في الأدب، إلا

يكن من إلهامك فإنه بسبيلٍ إلى تحقيق أملك!

يــترادف الليل والنهــار، وتتعاقب الظلمــة والنور، وأنا عاكـفٌ على دفاتري وأوراقي، أكتب وأفكر جاهداً لأخلق المعجزة التي تهزُّ النفس من أعماقها...! تُرى هل بَلَغْتُ؟

هاأنذا على شَرفٍ من الأرض في طريقٍ لاحِبٍ[1]، وثمة بارقةٌ تلوح من بعيد... وما تزال الفَراشة الجميلة تتواثب في مطارفها المُوَشّاة[2]، لا تنالها يدي على طــول السُّرَى وجهد السّهَــر وكدِّ الطريق.. حَتّامَ المسير؟ مَــنْ أنا اليوم عند النـاس ومَنْ أنت؟..

هــا نحــن أولاء التقينا منذ عام يظلُّنا سقفٌ واحــدٌ في دويرة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرَّق من أحلام الشباب؛ ووجدنا تعبير رؤيانا. ولكن... أين أنا؟ وأين أنت؟

مــاذا أجدى علــيَّ هذا الجهد المتواصل عشر سنين أبتــذل شبابي وأُنفق من دمي في سبيل المجد والشهرة والصيت البعيد!

المجــد؟ الشهرة؟ الصوت المسمــوع؟... ما كل أولئك يــا عزيزتي في حقيقة الحياة وفي دنيا النـاس؟

واخســارة الصفقة! إنَّ الفراشة الجميلة لا يجتذبها شيء من كل أولئك إنها جميعاً أوهام وأباطيل ليست من السعادة ولا هي سبيلاً إلى السعادة!

أين منِّي نفسي وأين أنتِ مني؟

لقــد التقينا يا عزيزتي كما تــراءى لنا في أحلام الشبــاب منذ بضع عشرة سنة، ولكنني لستُ هنا، ولكنكِ لستِ هنا...!

---

(1) واضح.

(2) ثيابها البديعة المزركشة.

إنـكِ أنتِ التي أغريتنـي بسلوك هذا السبيل منذ سنـواتٍ وسنواتٍ؛ فنذرتُ نفسي للفنِّ حتى أبلغ إعجابك، فلا تسأليني بعدُ عن نفسي!

هذا العبوس في وجهك يا عزيزتي ألمٌ إلى آلامٍ على كاهلي..

حدثيني صريحةً: لماذا أنتِ غضبانة؟

أنت تريدينني كما كنتُ منذ بضع عشرة سنة: فتىً لفتاةٍ لا يشعر شعورَ الحيِّ إلا معها؟

أنـت تدّعينني لرحلة من مثل ما كان في سالف الأيـام ذراعاً إلى ذراعٍ على الطريق؟

أنـت تسألينني: متى أراكَ إلى جانبي كعهدٍ مضى لا يعنيكَ من أمر شيءٍ إلا أن تكون لي وأكون...؟

وأنت إلى كل أولئك تريدين لي المجد والشهرة والصيت البعيد؟

لقد أذكرْتِني ما كان من أمري وأمرك يا عزيزتي، وأيقظتِ في نفسي ما كان راقـداً من زمانٍ؛ وهيَّجتِني إلى ذكرى اللهو والهوى والصبابة وسعادة الحب في سالـف الأيامٍ، حين لم يكن في الدنيـا غيري وغيرك، ولم يكن الزمان إلا اللحظة التي نعيش فيها لا ماضيَ له ولا آت! ما كان أسعدني بهذا الماضي!

فماذا أجد عليَّ ما نلت من دنياي بعد هذا الجهد؟

ها هنا شيءٌ وشيءٌ. فمنذا يهديني بينهما سبيل الرشاد؟

دعيني أنام!

إن عينيَّ لم تذوقا طعم الكَرَى[1] منذ سنوات وسنوات...

دعيني دعيني... إنني وجدت نفسي هنا...!

مـا المجد، والشهرة، والصوت المسموع، إلا وهمٌ من الوهم وحيلةٌ من الحيلة

(1) النوم.

لتفسد على السعيد دنياه!

لا تَدْعيني يا عزيزتي بعدُ إلى الجهاد والعمل. إنَّ بي حنيناً إلى الفراش الدافئ بعد طول السُّرَى وجهد السهر وكدّ الطريق...!

دعيني أنام لعلي أبلغ من السعادة في سِنةٍ حالمةٍ ما لا مبلغ إليه في يقظة الحياة!

بل دعيني يا عزيزتي أستيقظ من ذلك الحُلْم الطويل الذي ضرب على عينيّ بضع عشرة سنة أهذي باسم الفن والأدب والشهرة والجاه والصيت.

هذه هي الحياة، هذه هي الدنيا، كل ما عدا ذلك خداع وتلبيس ووهم من الأوهام!

دعيني، دعيني!

***

زَامِرُ الحَيِّ! (1)

زرتُ القدس -حماها الله- لأوَّل مرة في ربيع 1938 مدعُوّاً للاشتراك في الاحتفال بالذكرى الأولى لأديب العربيَّة الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وكنتُ عند نفسي -يومئذ- شيئاً كبيراً، فقد كان اسمي في الصحف والمجلات وعلى أغلفة بعض الكتب في المكتبات العامة، وما الذي يُكبر شابّاً في نظر نفسه أكثر من أن يرى اسمه في الصحف والمجلات وعلى أغلفة بعض الكتب؟

وزدتُ شعوراً بقيمتي حين رأيتُ صورتي منشورةً في صحف فلسطين صبيحة وصولي إليها، كما تنشر صور الزائرين الكبار حين يفدون على بلد من البلاد لهم فيه ذكرٌ وصيتٌ، ولم أكن قد لقيتُ أحداً بعد من أصدقائي في

(1) النداء 31 أغسطس 1948.

ذلـك البلـد الطيب، فأيقنـت أنَّ لي في ذلك البلد أصدقاء غـير مَنْ أعرف وأكـثر مما كنت أقدر، وزادني في هذا –إلى الشعـور بالعظمة– شعورٌ آخر بالخجل، فقد قـدَّرت أن بعض الذين يواجهونني في مقعدي بالقطار –وكان يسـير بـي وقتئذ بين اللّدِ والقدس– يعرفونني وأنا لا أعرفهم، فما أخزى أنْ أعاملهـم معاملةَ الغرباء وهم ينظرون إليَّ نظرة الصديق، وهكذا تقاصرتُ في مقعدي وتداخَل بعضي في بعضي حياءً من الناس، على حين كان شعوري بالعظمة وضخامة الشأن يملأ جوانب نفسي.

وبلـغ بـي القطـار المدينـة المقدسة ولم يكـن ثمة حمَّـال يعيننـي على حمل (أغراضـي) إلى الرَّصيـف واستحييـتُ أن يراني الناس أحمـلُ على كتفي حقيبـةً وفي كل يدٍ من يديَّ حقيبةٌ غيرهـا، وإنْ كنتُ لا أستنكف من ذلك في غـير هذا المقـام، وانتهت هذه الأزمـة على وجهٍ ما، ورأيتُنـي أواجه موظف المحطـة المُـوكَّل إليه حفظُ أمانات بعضـ المسافرين حتى يعرفـوا أين يكون مأواهم من المدينة، وسألني عن اسمي؛ فرفعتُ هامتي وملأتُ صدري هواءً قبل أن أُجيبه إلى ما سأل وأُنبئُهُ مَنْ أنا...

ويبـدو أنَّ صوتي كان ضعيفـاً –لسبب ما– فلم يبلغ اسمـي أذنيه واضحاً، فعاد يسألني في لهجةٍ رسميَّة: اسمُكَ؟

وأجبته وقد زايلني ما كان يملأ جوانب نفسي من الشعور بالذات...

وعـدتُ في نظر نفسي فرداً ككل فردٍ من النكرات الذين تقتحمهم الأعين في الطريق فلا تأبه لهم...

وكتـب الرجل ما أراد أن يكتب، ثم تَسلـم حقائبي إلى حيث يحفظها، وسلَّم إليَّ صكاً ومضيتُ عنه وأنا أقول لنفسي: هذا رجلٌ لا يعرفني!...

ولم يعرفنـي أيضـاً سائق التاكسي، ولا النـادل في القهوة، ولا الشرطي حين سألتـه عـن الطريق وهو واقـفٌ تحت مظلـةٍ في الميدان ينظم المـرور.. ولم

يعرفني أحد من هــؤلاء، وكانت صورتي منشورةً في أكثر من صحيفةٍ عربيةٍ وتحتها كلمةٌ رقيقةٌ تحيِّي بها مَقْدِمِي!

وقلــتُ لنفسي متأسِّيــاً: لا بأس؛ فأولئك الناس من العامــة لا يطمع مثلي أن يعرفــوه...، ثم التقيــتُ بأصدقائي، وكانوا حقّاً أكثر ممــا قدرتُ أن يكونوا، وتنقَّلــتُ في مجالــس شتى حافلــة يعرفني كلٌّ مَنْ فيهــا ولا أكاد أعرف منها إلا قلــةً، وخطبتُ، وحاضرتُ وأذعــتُ في الراديو... وازدحمت عليَّ الدَّعوات من أصحاب الجاه والمكانة في المدينة، وعاوَدَني شعورٌ الثقة بالنفس، وبأنني شيءٌ كبيرٌ، ونسيتُ مكانتي عند خازن المحطةَ وسائق التاكسي، ونادل القهوة وشُرطيِّ المرور.

وقلــتُ لنفسي واثقاً مطمئناً: إذا كنتَ كبيراً فــلا يضيرك أن يجهل الصِّغار قدرك!

ورأيتُنــي ذات مســاءٍ في مجلسٍ حافــلٍ بأهل العلم، أحاورُهــم ويحاورُونني، وينتقــل بيننا الحديث في مناقله، وسألني سائــلٌ: كيف حال فلان؟ ولم أكن أعــرف فلانــاً هذا أو أسمــع باسمه من قبل أن يطرق سمعــي ذلك السؤال، وتحــيَّرتُ كيف أُجيب؛ فقد كان (فلان) هــذا مصريّاً من المشهورين بالعلم بــين أهــل هذا البلد فيما يبدو، ولم يكن سائلي هــو وحده الذي يعرفه ويكبر قــدره، فقد تنقَّــل اسمه في المجلس على أفــواهٍ عدَّة بعــد أن ذكره صاحبنا، ويظهــر أنــه كان حقيقاً بهــذه الشهرة، فقــد كان الذين يذكرونــه من أهل الاطلاع والعلم.

وخجلــتُ حين انتهيــتُ إلى هذه الحقيقة، فهذا مصــريٌّ كبيرٌ من أهل العلم يــتردَّد اسمه على أفواهٍ كثيرةٍ وراء حــدود بلاده ولستُ أعرفه؛ بل لعل كثيراً مــن أهــل العلم في مصــر لا يعرفونــه مثلي، وخطــرتْ ببالي للمــرة الثانيةِ الكلمــةُ التي قُلتُها لنفسي منــذ أيام: «إذا كنتَ كبيراً فــلا يضرُّك أن يجهل

الصِّغـار قدرك»، ونقصتُ في نظـر نفسي درجاتٍ، ورأيتُنـي (صغيراً) بين (كبارٍ) وأغرقتُ في الصَّمت، وأرعيتُ أُذُني حديثَ السَّامرين، لا أزيد على أن أضحـك حين يدعو الحديث إلى الضحـك، أو أمطَّ شفتي حين يستدعي الحديث إظهار الأسف والسُّخرية!

وحفظـتُ اسم صاحبنا (فلان) هذا من يومئـذٍ، وعزمتُ على أن أجعل أول خطاي إليه حين أعود إلى القاهرة كفارةً عن هذا الخطأ!

وظللتُ أتنقَّل بين مجالس أهل العلم، وظلَّ أهل العلم في مجالسهم يُضيفون كلَّ يوم إلى معارفي اسماً مصرياً جديداً لم أكن أعرفه، وازدحمت حافظتي بأسمـاءٍ كثيرةٍ لأدباء مصريين يعيشون في مصـر ولا يكاد يعرفهم أحدٌ وإنْ كانت أسماؤهم دائرةً على كل لسان عربيٍّ وراء الحدود!

ومضت سنواتٌ ونسيتُ أكـثر هذه الأسماء أو كثيراً منها، ولكن اسماً واحداً لم أنسه ولم يغبْ عن خاطري، وإنْ كنتُ لم ألقه على ترادف السنين أو أهتم بالسعـي إليـه كما كنتُ معتزماً... لم أنسه دون غيره– لأن اسمه كان أول ما نبهنـي إلـى الحقيقة المؤلمة التي يعيش فيها كثيرٌ مـن الأدباء (النَكِرَات) في بلادهم!

ثـم رأيتُني ذات صبـاحٍ في القاهرة أسعـى بين دكاكين بعضِ الورَّاقين، ثم ينتهي بي السعي إلى دكانٍ منها أريد أن أتحدث إلى صاحبه حديثاً ما، فإذا هـو يُحدِّث رجلاً عليه سِيماءُ أهل العلم، لا أعرفه ولا يعرفني، ولكنَّ صاحب الـدُّكَّان يُعرِّف بعضنا إلى بعض: هذا فلان –وأشـدُّ على يده في حرارةٍ كأنَّ بيننا وداً قديماً–، ويبتسم الرجل قائلاً: هل التقينا من قبل؟

– نعم منذ بضع سنين في القدس!

– ولكنِّـي لم أذهـب إلى القدس قط؛ وإنما أعيش في القاهرة منذ سنين لم

أبرحها إلى بلدٍ آخر...

- أتعني ما تقول؟

- نعم، ولعلَّ أمراً ما قد خُيِّل إليك غير هذا، فزعمت...

- لستُ أتخيَّلُ أو أزعم يا صديقي؛ وإنما أقول الحقَّ وحين أنبئك أنك في القدس (تعيش) وبين أهلها عرفتك قبل أن نلتقي في القاهرة وجهاً لوجهٍ ونتحدث شفةً لشفة!

قال وقد فهم ما أعنيه: نعم؛ فقد عرفتُ منذ بعيدٍ أن زامر الحيِّ لا يُطرب! ليت شعري أهي قاعدة (زامر الحي) التي جعلتْ صاحبنا هذا الأديب العالم (نَكِرَةً) في بلده، أم نَكِرَة في بلده لأنه يعيش في أُمَّةٍ من الجُهَّال؟؟...

***

عندما تدخَّل الإنجليزُ وأيَّدهم وزيرُ المعارفِ لإحراقِ كتابٍ عن الثورةِ المصريَّةِ[1]

قال لي صاحبي: «أنت موظَّفٌ، وأنت إلى ذلك تُعالج بعض فنون الأدب، والنشر، والصَّحافة، فكيف يتهيَّأُ لك أن تجمع بين الأدب والوظيفة؟».

ويُخيَّل إليَّ أنَّ هذا السائل لم يقصد أن يتوجَّه إليَّ بسؤاله على هذا الوجه؛ وإنَّما قصد وجهاً آخر، ولعلَّه أراد أن يسألني على أسلوب بعض المُحقِّقين: «كيف تستطيع وأنتَ موظَّفٌ محظورٌ عليه بحكم وظيفته أن يكون من أصحاب الرأي الحُرِّ... أن يكون أديباً؟».

ولستُ بحاجةٍ إلى أن أُجيب عن سؤاله ذلك؛ فأنا موظفٌ حقاً، ولكنَّ وظيفتي لم تستطع يوماً أن تحملني على رأيٍ في الأدب غير الذي أراه، وأعني الأدب

(1) النداء 28 أكتوبر 1947.

بمعنـاه الواسـع الذي يشمـل الحيـاة في كل ألوانهـا وعناصرهـا الظاهرة والباطنـة، فأنـا في كلِّ مـا أنشئُ من فصـول الأدب بأوسع معانيـه ،حرٌّ كلَّ الحُريَّـة لا سلطـان لأحد علـيَّ ولا وصاية، وإني لحريصٌ علـى هذه الحريَّة حرصـي علـى ذاتي وكياني، فـإنْ كان أصحـاب هذه الوظيفـة لا يريدونني كذلـك فقـد أردت لنفسي، وإنهـم ليملكون الوظيفة؛ ولكنهـم لا يستطيعون أن يملكـوني، والخيرة في أيديهم؛ فـإن شاؤوا أوسعوا لي الحريَّة فبقيت كما كنـتُ منذ بضع عشرة سنة: أديباً موظفـاً، وإن شاؤوا كنتُ أديباً حرّاً فلستُ أحرص على شيءٍ مما في يدي غير أن أكون أديباً حرّاً صادق التعبير عن كلِّ ما تراه عيناي ويُحسُّه وجداني!

ولقـد عَرَضتْ لي في حياتي الأدبيَّة بعضـ الأزمات من قبل الوظيفة، وكانت امتحانـاً لحريتي، فمـا أخفقتُ مرةً في الامتحان، فـإن كان من حقِّ أحدٍ أن يزعـم أننـي أديبٌ من أدباء الجيـل، فإنَّ من حقِّ الذين يعنيهـم تتبُّع تاريخ الأدب في هذا الجيل أن أقصَّ عليهم بعض ما عرض لي من تلك الأزمات:

***

كنـت في سنـة 1938 أُعالِج فيمـا أُعالِج من فنـون الأدب بابـاً من قصص الأطفـال علـى أسلـوبٍ من الفـنِّ يُلائم بـين مذهبـي في الأدب ومهنتي في التعليـم، وقـد أخرجتُ من هذه القصص –بمعونة بعضـ الزملاء– بضعاً وعشريـن قصةً في بضعـة وعشرين كتاباً، وكان بينهـا قصة جعلتُ عنوانها (الراية الحمراء) تُصوِّر بعض حـوادث الثورة المصريَّة سنة 1919، ليتعلَّم التلاميذ درساً من التاريخ المعاصر ينبغي أن يتعلَّموه.

ومضـت بضعـة أشهر، وسافرتُ إلـى فلسطين في رحلة علميَّـة موفقة آملتُ أن أُصيـب من ورائها خيراً وأن أظفـر بتقديرٍ من وزارة المعارف، وكان على

رأسهـا يومئذ أديبٌ من أصحاب الرأي اسمه (محمد حسين هيكل)، ولكنِّي لم أكـد أصـلُ إلـى داري عائداً من رحلتـي حتى استقبلتُ رسـولاً من وزارة المعارف يدعوني إلـى التحقيق مُتَّهَماً بإهانة الدولة الحليفة وإثارة البغضاء لها في قلوب التلاميذ في قصَّة الراية الحمراء!

وكانـت السِّفـارة البريطانيَّـة في القاهـرة قـد ترجمـت القصَّة كلهـا إلى الإنجليزيَّـة حرفاً حرفاً، وكتبت معها تقريراً بالإنجليزيَّة إلى وزارة المعارف تحتج... وتُطالب...

وبـدأني المُحقِّق قائـلاً في لهجـة عسكريَّة صارمـة وعضلات وجـه تختلج: كيـف تجرؤ يا أستـاذ..؟ وابتسمـت، فقد كان منظره وهـو يصطنع الحزم والصَّرامـة يدعو إلى الابتسـام، ولكنِّي أجبتُ وقد كان لابـد أن أجيب، فلم يكـن في الموضـوع ما يدعو إلى الجـرأة أو التخـاذل، إذْ لم تكن القصَّة كلها إلا صـورةً صادقـة التعبير عن بعض ما كان بـين المصريين وجنود بريطانيا في سنـة 1919، بـلا تَزَيُّـدٍ ولا فضولٍ إلا ما يقتضيه فـنُّ القصَّة من الحبك والتعقيد وتسلسل المقدمات إلى نتائجها.

وعاد المُحقِّق يسأل: ولكننا اليوم حلفاء بريطانيا، فكيف تثير هذه الدفائن؟

قلتُ: لأنني معلمٌ لا أفهم من معنى التاريخ إلا أنَّه رواية ما كان كما كان!

قال: أفلا تعرف أن رواية (كل) ما كان، قد يُكدِّر صفاء ما بين الدولتين؟

قلـتُ: إنني يا سيدي لا أعـرف السياسة، بل إنني –بحكم وظيفتي– ممنوعٌ من الاشتغال بالسياسة؛ فليس من الحق أن يُطلب منِّي رعاية هذه الاعتبارات السياسيَّة حين أروي حقائق التاريخ!

ولم أكـد أصـل من جوابي إلى هذا الحدِّ، حتى هـبَّ المُحقِّق واقفاً يصيح بي وفي وجهـه الغضـب: أتمزح في موقـف الجد؟ أتسخرُ منـي؟ ألا تعرف ماذا

أتيــتَ من جــرم؟ ألا تُقدِّرُ مــا يترتَّب عليه مــن نتائــج؟ إن بريطانيا تحتجُّ! بريطانيا تحتجُّ!!

وبلعــتُ ريقي، فقــد ظننتُ أنَّ بريطانيا تطلب رأســي، جزاء محاولتي تعكير صفو ما بين الدولتين... الحليفتين!

فقلــتُ وأنا أصطنــعُ الهدوء: ولكنِّــي لم أختلق شيئاً مما رويــتُ، كله صدقٌ، فكيف يكون هذا ذنباً؟

واختلجتْ شَفَتا المُحقِّق، ودقَّ المكتبَ بيديه دقاتٍ متتابعةً حتى كادتا تدميان، وقال مُهدِّداً: أرفتك...!

وأُفــرخَ رَوْعي[1] واطمأننــت، أهذا كل ما هنالك؟ فليرفتنــي، ليتيح لي شيئاً مــن الفراغ أُنشــئ فيه كل شهرٍ قصَّةً مثل (الرايــة الحمراء) أتبرَّعُ بنصف إيرادها لوزارة المعارف تُعلِّم به طائفةً من التلاميذ الفقراء!

وهممــتُ بالانصراف غير مستأذنٍ، أيُهدِّد هذا الرجل حريتي الأدبيَّة، وعلى رأس وزارة المعارف أديب يؤمن بحرية الأدب اسمه محمد حسين هيكل؟ يا له مِن موضوع مقالة!

ذلــك كل ما عناني من الأمــر وقتئذٍ، فلم أُكلِّف نفســي إحصاء ما في جيبي من جنيهاتٍ أو قروشٍ لا تكاد تكفيني أياماً وأنا يومئذٍ زوجٌ في الشهر الأول!

ثــم انتهــت القصَّة باعتــذارٍ إلى السفــارة البريطانيَّــة، وبقرارٍ مــن وزارة المعــارف بجمع نسخ القصَّة مــن الأسواق والمدارس وإحراقها، أحرق منها بضــع عشرة ألف نسخة في يوم ما من شهر مايو سنة 1938 في فرن مدرسة المنيرة الابتدائيَّة، بحضور مندوبٍ من السفارة البريطانيَّة!

وخسرنا بذلــك مائة جنيه فعاقتنا هذه الخسارة عــن الاستمرار في إصدار

(1) ذهب عنه خوفه واطمأن.

تلك السلسلة وكانت لوناً جديداً في أدب الطفل، ولكنَّ الأزمة فاتت!

ثم كانت أزمة أخرى بيني وبين الهلاليِّ وطه حسين سنة 1943، وكنتُ يومئذٍ أُحرِّر فصولاً لمجلة الثقافة بإمضاء (ق).

على أنني كنتُ يومئذٍ سكرتيراً للهلالي باشا يأتمنني على سِرِّه ويُؤثرني بعطفه، ويمنحني من الثقة والتقدير ما يجعلني أدنى إليه منزلةٍ من كثيرٍ؛ ولكن ذلك لم يمنعني أن أكون كاتباً كما أُريد، وفي كل موضوعٍ أُريد، فلم يخطر ببالي قط وأنا أمسكُ القلم لأكتب مقالتي الأسبوعيَّة أنني سكرتير وزير المعارف، فلم أكن أتحرَّج من نقد وزارة المعارف.

وكتبتُ مقالاً بعنوان (يا نصيب) فيما أذكر، تناولتُ فيه قراراً لوزير المعارف بالنقد، فسخرتُ من ذلك القرار ما سخرتُ، وضحكتُ وأضحكتُ القرَّاء، وكانت الرقابة من الشدَّة بحيث لا يكاد يفلت منها مقالٌ ولا خبرٌ، فلم يكد الأستاذ محمد القبَّاني الرقيب العام للنشر يومئذٍ يطَّلع على ذلك المقال حتى أمر بحذفه...

وكان ذلك قبل موعد صدور المجلة بساعات، وتحدَّث إليَّ سكرتير تحرير المجلة تليفونيّاً يستنجدُ بي، وذهبتُ إلى الأستاذ القبَّاني راجياً فلم يستمع إلى رجائي، وأصرَّ الرقيب على موقفه محتجّاً بالتعليمات، وبأنه لا يملك نشر مثل هذا المقال إلا أن يأذن في ذلك وزير المعارف نفسه!

قلتُ: فأنا –بحكم وظيفتي– آذن بنشره باسم وزير المعارف!

قال: قد كان ذلك لك –بحكم وظيفتك– لو لم تكن أنت صاحب المقال!

قلتُ: إذن دعني أعرضه على وزير المعارف!

فتناول سماعة التليفون وتحدَّث إلى الهلاليِّ باشا، وأحال الهلاليُّ باشا المقالة وكاتبها إلى مستشاره الفنِّي الدكتور طه حسين بك!

وقرأتُ المقــال للمستشار؛ فلم يكد يفرغ من الاستماع إليه حتى قال: فوِّت يا أخي! إن وزارة المعارف أرحب صدراً من أن تضيق بمثل هذا النقد!

وفاتــت هــذه الأزمة أيضاً ولم تكــن هي كل أزماتي الأدبيَّــة في عهد الهلالي باشا، فكم مقال نشرته لي (الثقافة) فقرأه الوزير أو قرأه مستشاره في نقد وزارة المعارف، ثم أغضى أو تحدث إليَّ حديث الأديب المؤمن بحرية الأدب!

***

ثــم كانت أزمــة البيداجوجيا[1] بينــي وبين السنهوري باشــا في سنة 1945، وكنــتُ فيهــا أباً يُدافع عــن أطفاله، ومُعلِّمــا يدافع عن حرية العلــم، وكاتباً يؤمــن بحريــة الأدب، ولكنَّ هــذه الأزمة لم تنته من قريــب، فقد أبى الوزير إلا عقابي، وعقاب أطفالي معــي، ووضعني بين طريقين: الأدب أو الوظيفة، وآثرتُ حرِّيَّة الأدب على الوظيفة!

ثم عُدْتُ، لم أعد طائعاً، فقد كنتُ من حريتي في رضا وهدوء بالٍ واطمئنان نفسٍ وسعــة رزقٍ، لعلها لم تتوفــر لي في غير هذه الفترة مــن حياتي، ولكن (مجلس التأديب) الذي تألف لمحاكمتي قد أراد أن أعود حين ردَّ لي اعتباري المــاديَّ والعلمــيَّ، وردَّ إلى أطفالي اعتبارهــم، فأغراني ذلــك أن أعود إلى الوظيفة، ولعلها كانت حماقةً.

***

واليــوم تعرضُ لي هــذه الأزمة، أزمة المزيكا التي كانت تعزف في قرية بكفيا –لبنــان– ليطمئن المشفقون على صحة فخامــة رئيس الجمهوريَّة، ولتهدأ صيحات الفزع بين أنقاض المنصَّة المحطمة.

واتهمني مَنْ اتهمني بما لم يخطر قط على بال أحدٍ من قُرَّائي الذين يُتابعون

(1) علم التربية الحديثة.

مــا أكتب منذ بضع عشرة سنةً، فقالوا إنني بما وصفتُ من تلك الحادثة قد نلتُ من رئيس دولة عربيَّة!

أنا الذي وقف قلمه منذ كان على تمجيد العروبة وإذاعة مفاخرها!

ثم كان العقاب!

وستمضي سنواتٌ، وتتعاقب الأجيال، ويكون ما أكتبه اليوم فصلاً من تاريخ الأدب، وينســى القرَّاء هذه الحادثة وذلــك الحديث، ولكنهم يتذكرون شيئاً واحداً هــو أنَّ كاتباً مصريّاً يعرفه الآلاف من قرَّاء العربيَّة منذ بضع عشرة سنــةً، قد حاول وزيرٌ من وزراء المعــارف في مصر أن يفرض عليه الصمت، بناءً على طلب موظَّفٍ في المفوضيَّة اللبنانيَّة بالقاهرة!

لو لم يكن وزير (المعارف)!

لو لم يكن موظف من لبنان!

لو لم أكن أنا...!

وزيــر المعارف الذي ينتظر أن يكون –بحكــم منصبه– أعمق إدراكاً لمعنى حرية الأدب!

وموظـفٌ من لبنان، البلد الذي يُباهي من الخافقين بأنه حامل أمانة الأدب منذ أجيالٍ ذهبتْ إلى أجيالٍ لم تُولد بعد!

ولــو لم أكــن أنا... أنا الــذي يعرفه كل قارئ في البلاد العربيَّــة أين بلغ حُبُّه للعروبة!

ولكنهــا أزمةٌ، وستمضي كما مضت أزماتٌ قبلها، وسيكون عاقبتها ما تكون، ولكنِّي سأظل أبداً حُرَّ القلم واللسان والوجدان.

***

ثالثاً: مع أولاده

ابنتي...![1]

مرحباً يا عزيزتي الصغيرة!

ها أنتِ ذي يا ابنتي أمام عينيَّ حقيقة أراها وكُنتِ حلماً من أحلامي!

وها أنذا ألقاكِ بعد صبرٍ صابرٍ وجهد جاهدٍ وطول تشوُّفٍ وارتقابٍ؟

مـا لكِ مغمضة العينين أكـثر ما تكونين يا ابنتي كأنمـا لا تجدين في دنياك الجديدة ما يُغري على اليَقَظةِ والنَّظر؟

ومـا لك صامتـة أبداً فما تفتحين فمك إلا للبكاء كأنمـا تشعرين بالغُربة في هذا العالم الجديد؟

وما لهـذه اليدين والرجلين دائبات على الحركة أبداً كأنما تحاولين الفكاك من قيدٍ غير منظورٍ؟

أين كنتِ يا ابنتي؟ ومن أين جئتِ؟ والى أين المسير؟

أهـذا يوم ميلادك يـا ابنتي أم هو أول الطريـق في مرحلةٍ بين مرحلتين من عالم مجهولٍ إلى عالم مجهولٍ؟

حدِّثيني حديثك عن دنياك التي كانت، ودنياك التي تكون؛ فأنت أقربُ عهداً يا بُنيَّة إلى ما كان، وأَصْفَى نفساً إلى تصوُّر ما يكون!

ها أنذا أرى شفتيك تختلجان وأنتِ نائمةٌ كأنما تهمسين بسرٍ في أُذُنٍ!

وتبسمـين أحياناً بسمات غامضةً كأنمـا تستمعين إلى نجوى صامتة في دنيا الأحـلام التـي تصـل جديدَك في هـذا العـالم بماضيك القريـب في العالم المجهول!

---

(1) الرسالـة، العـدد 299، بتاريخ 27 مارس 1939، وقد كتب هذه المقالـة في ابنته الكبرى الدكتورة تهاني كما أخبرتني.

وتعبسين أحياناً باكيةً بلا صوت ولا دموع كأنما لا يعنيك أن يسمع أحدٌ أو يرى؛ لأن الذي تُعنين أن يعلم بشكواك ليس خَلْقاً من الخلق؛ ولكنه روحٌ من روح الله!

حدِّثيني ماذا ترين يا بُنَيَّةُ في منامك وماذا تسمعين؟

مَنْ ذَا يُسامرك يا ابنتي في أحلامك وما عرفتِ شيئاً بعدُ في دنيانا تؤلِّفين من أشتاته أقاصيصَ في أحلام!

ليتني أعرف ماذا كنتِ أمس؟ وماذا أنت اليوم؟ وماذا تكونين ونكونُ في غدٍ! أطوارٌ ثلاثةٌ في تاريخ البشرية ليس في أيدينا من العلم بها إلا اليوم الذي نعيش فيه؛ أمَّا أَمْسٌ قبل أن نكون، وأما غدٌ بعد أن نصير...!

من يدري، من يدري؟ إنَّ هنا سرَّ الأزل، وسرَّ الأبد، وبرهانَ الخلود!

حياة بين حياتين، ليس لنا من العلم بأولاها إلا بطن الأم، وليس لنا من العلم بالأخرى إلا بطن الأرض، ونحن بين الحياتين في مضطرب مائج لا نكاد نحسُّ إلا ما تقع عليه أعيننا وما تلمس أيدينا، وإننا على ذلك لنزعم أنَّ لنا الحق في أن نتحدث عما قبل الحياة، وما وراء المادة في جدال السفيه ودعوى المغرور!

***

ابنتي طفلة في المهد لم تتجاوز من العمر في تاريخ البشرية إلا أياماً معدودة، ولكنها إلى ذلك كبيرةٌ كبيرةٌ في نفسي وفي أوهامي، إنها لم تولدْ أمس، ولكنها كانت في رحلة ثم آبت. إنها كبيرةٌ كبيرةٌ لأنها كانت تعيش في أحلامي منذ سنوات وسنوات. منذ أيقنتُ أنني يجب أن أكون أباً؟

هل كنتِ تسمعين نجواي يا بُنيتي من وراء حدود المجهول وقد جلستُ ذات مساء أهتف باسمك في دنيا الأماني متسائلاً: أين أنتِ يا ابنتي؟ أين أنتَ يا

ولدي؟ أين أنتِ يا زوجي التي لم أرها ولم أَعرفها بعد؟ أين أنتم يا أحبائي؟

طفلــة هي على حســاب الزمن إن كانت سن الحي تُعَدُّ بالسنين والأيام؛ فكم تكــون سنُّها على الحقيقة منذ كانت أمنيــةً تتراءى لي في اليقظة وطيفاً يُلمُّ بي في الأحلام؟

صورة إنسانٍ في بضعة أرطال من لحم ملفَّفة في طيَّات الفراش، ولكنها معي أينما كنتُ، أُطوِّف بها ما أُطوِّف في دنيا عريضةٍ من الأماني والأوهام!

خرســاء ما لها بيان بعــد، فإذا التقت عينان بعينين؛ فــإن بينها وبين نفسي حديثاً أفصح من حديث كل ذي شفةٍ ولسانٍ!

طفلة هي إذا نظرتُ إليها في فراشها هادئةً مستسلمةً لا تقدر على الحركة؛ فــإذا أغمضتُ عيني وسبحتُ فيما أسبحُ من آمالي فهي غير منْ هي: صبيَّةٌ تدرج، أو فتاةٌ تخطر، أو عروسٌ في جَلْوَة العُرس[1] إلى ذراع عروس...!

***

تعالي إليَّ يا بنيتي أضمُّك إلى صدري؛ إنني أنا أبوكِ؛ أتراكِ تعرفين؟

هاتــان عيناك الساجيتان[2] تنظــران إليَّ نظراتٍ ليستْ من مثل ما تنظرين إلى أخي وابن عمِّي؛ بربِّك مَنْ علَّمك؟

انظــري إليَّ يا ابنتي وأَطيلي النظر، إنَّ في عينيك سرّاً يُلهمني ما لم تُلهمني مشاهد الدنيا جميعاً منذُ كنتُ إلى يوم عَرَفْتُكِ!

حدثينــي حديثك الصامت يــا عزيزتي لعلي أستشفُّ مــن وراء حديثك سرَّ المجهــول؛ ما أنــتِ؟ وأين أنــتِ؟ وما كان ماضيــكِ؟ وكيف تأملــين أن يكون غدك.. أأنتِ هنا أم أنتِ هناك؟

---

(1) الحالة التي تكون فيها العروس على شيء من الزينة بحيث ينظر إليها الزوج.

(2) الساكنتان الهادئتان.

شمسٌ تُشـرق وتغيب، وليـلٌ يُطبق وينجلي، وريـاحٌ تعصفُ وتهـدأُ؛ وإنسانٌ يعبسُ ويضحـكُ، ومعدةٌ تمتلئ وتفـرغ، وقلبٌ صاف صفاء الحـق أو عابسٌ عبوس الضـلال، وعيونٌ فيها بريـق الشهـوات أو فيها دمـوع الألم، ووجوهٌ سافرةٌ ووجوهٌ عليها نقابٌ... هذه هي دنيانا أيتها الصغيرة، فما هي دنياك؟

أتـراك تعرفين يا عزيزتي الصغـيرة؟... ما أرى صمتَك الطويلَ يا بنيتي إلا حـذراً ورقبةً حتى تعرفي ما أنتِ في دنياك الجديـدة...! تُرى مَنْ أدَّبك هذا الأدب يا بُنيتي؟

سائـحٌ جوّال رمتْ به الأقدار إلـى وادٍ غير واديه؛ ودنيا غير دنياه، وعيش لم يعش مثله فيما استدبر من حياة؛ ماذا يقول وكيف يتحدث... أهكذا أنتِ في صمتك يا عزيزتي؟

هذه أمك يا صغيرتي لم تحمل ولم تلد قَبلُ؛ علِّميها الأمومة يا صغيرتي، إنها لم تكن تعرف...!

هـا هي ذي حانيةٌ عليك صابرةٌ على ما تعاني من أوجاع الأمومة الأولى وإنَّ في عينيها لبريقاً لم أر مثله فيما رأيتُ من عينيها قَبْل!

مغتبطـةٌ سعيدةٌ أن تضمَّكِ إلـى صدرها في حنانٍ ورقةٍ وإن بها من الآلام ما يُذهلُ كلَّ ذات ولدٍ!

وهاتـان شفتـاك الصغيرتـان تبحثـان عن شـيء هنـا... مَنْ علَّمـك أيتها الصغيرة أنَّ هنا أودعَ الله ما أودعَ ليكون لك شِبَعاً ورِيّاً؟

ورأيتُـك تلقمـين ثديهـا مغمضة العينـين تناوُلَ الخبـير الفَطِـن، فأحسنتِ الرَّضاعة، وما تُحسنُ أمك أن تُرضع!

يا عجباً! الطفل الصغير يُعلِّم أُمَّه الأمومة قبل أن تتعلم هي أن تكون أُماً!

في كلِّ مرأى عينٍ منكِ يا صغيرتي درسٌ يهديني ويُلهمني!

***

هل أنتِ سعيدةٌ بدنياك أيتها الصغيرة؟ هل تتألَّمين لشيءٍ؟

هل تُؤمِّلين في شيء؟ هل وجدتِ الحياة كما علَّمك باريك الأعظم؟

مَـنْ لي بـأن أسمع جوابَ ما سألتِ! ولكن، لا، لا، حسبي الذي أرى؛ إنك أنتِ أنـتِ لأنك لا تجيبين؛ إنكِ أنتِ أنتِ لأنّي لا أعرفُ من أنت؛ حسبي من العلم ما تُلهمني نفسي؛ إن ذلك أعمق أثراً في جَنَاني من كل بيان!

هـذا جسمكِ ينمـو كل يوم شيئاً شيئـاً، وهذه حركاتك تقـوى وتشتدُّ، وهذا صراخُـك يتنوع نـبره وتختلف أنغامه؛ وغداً -إن شـاء الله سيكون لك غدٌ- ستكبرين يا صغيرة حتى تبلغي ما تبلغين؛ وكم يلذُّني أن أتمثلك في خاطري صبيـةً وفتاةً وسيدةً كمـا آمل أن تكوني؛ ولكن شيئاً واحـداً هو أغلى من كل ذلـك آمل أن يظـل معك صبيـةً وفتاةً وسيدةً؛ هـو قلب الطفلـة، وابتسامة الطفلـة، ونظرة الطفلة، و...، وصمت الطفلة حـين تضجُّ الحياة من حولكِ وتصطخب، ويلتمس كلُّ سؤالٍ جوابه...!

ولكن، آه... إن حكمة المقادير لتأبى...!

هكذا كنا جميعاً، وهكذا صرنا؛ وكانت لنا حياة أين منها الحياة التي نعيش اليوم!

عيشي لي يا ابنتي واسلمي، وكوني ما تكونين؛ فأنتِ أوَّلُ من أَبَوّتُ، وأنتِ أول من علَّمني معنى الحياة...!

لـماذا تبكين يا بُنيَّة؟ ها أنـذا على مقربة منك، تُملين عليَّ وأكتبُ؛ تعالَيْ بين ذراعيَّ، إنهما على ما إنهما، لأَلْيَن مسّاً على جنبيك من هذا الفراش الوثير!

تبكـين لأني منصرفٌ عنك منذ ساعاتٍ إلى أوراقـي أكتبُ؟ من علَّمك هذه الغيرة يا بُنيَّة؟ إنّ فيكِ لطباعَ الأنثى وإنْ لم تكونيها بعد!

ابتسمي لأبيك أيتها الصغيرة؛ لا تبكي؛ إنني أنا أبوكِ؛ لقد تعلَّمتُ منذ الساعة ما أنا، وعرفتُ ما عليَّ من واجب؛ إنني لكِ منذ الآن، لا يصرفني شأنٌ من شؤون الحياة عن هذا الواجب إلا أن يكون سعياً إلى ما يُصلح من شأنكِ...

تعاليْ تعاليْ علِّميني! إنني أنا والدكِ ولكنكِ أنتِ ولدتِنِي يوم وُلدتِ؛ لأنك أنشأتِنِي خلقاً آخر من يومئذٍ...

تعاليْ، قبِّلي أباك!.. لا تعرفين؟.. هذه قُبلتي على جبينك يا صغيرة تذكرينني بها إلى معادٍ؛ وإنَّها لدَيْنٌ إلى أجلٍ لا بد أن أقضيه يوماً من شفتيكِ!

***

العيد[1]

اليوم عيدُ الناس يا صغيرتي فقومي!!

قومي فالبسي جديدك، وافرحي فَرَحَ الأطفال بالعيد؛ لتمنحيني من (مَرْآك) في الجديد (منظراً) من فرحة الناس بالعيد!!

لقد نضب في قلب أبيك أيتها الصغيرة كلُّ إحساس بمعاني الفرح والأنس والمسرَّة، فعوضيني من الإحساس بمعاني الفرح في قلبي منظراً تشهده عيناي...!!

ما لعينيك تبحثان هنا وهناك، كأنما تفتقدين شيئاً من مجالي العيد لا تراه عينان هنا ولا هناك!!... انظري..!!

ها أنذا أبوك، وهذان أخواك الصغيران، فماذا تُنكرين من عيدك يا صغيرتي، وماذا ينقص عيدك عن أعياد الناس؟...

(1) مجلة الثقافة، العدد 198، السنة الرابعة، 1942.

وأنتِ أيتها الصغرى[1]... اهتفي ما تهتفين بحديثك الأعجم، وأرسلي نفسك وراء عينيــك تبحثان في كل زاويةٍ من زوايــا الدَّار... ليس من شيءٍ هنا غير أبيك وأخويك، وغير هذا الجديد من ثياب العيد...!!

أنــت أيضــا تفتقدين شيئاً من مجــالي العيد، لا تراه عينــان هنا ولا هناك، وأنت لم تشهدي إلا عيداً واحداً قبل هذا العيد...!!

مــاذا رأيتما في منامكما الليلــة أيتها الصغيرتان فردّكُمــا إلى الذكرى بعد سلوانٍ، واليوم عيد الناس!!

وأنــت يا بُنيَّ... هاتان عيناك تشهدان أول عيد فما لشفتيك تختلجان كأنما تحاولان كلمة لم يسمعها سامعٌ، وليس عليها جوابٌ؟ ظمآن إلى ثدي لم تلقمه شفتــاك، ولم تحس مذاقه... لهفان إلــى صدرٍ لم تستشعر حنانه ساعةً، ولا رأيت عناقه... لا لا.

قومــوا يــا بَنِــيَّ فالبسوا جديدكــم وافرحوا فــرح الأطفال بالعيــد، إنه عيد الناس... وإنه عيدي... لأنني على موعدٍ مع الحبيب...

هــا أنذا ذاهبٌ إليه لأستنشي علــى مبعدة من عبير ترابه، وأذرف على ثراه دموعي!!

ويلقاني على وَجْدِي صديقي، وما يدري، ولست أُريدُ أن يدري... بحسبي أن أستشعر في وحدتي لذة الحرمان إنّ فاتتني لذة الجِدَة!!

يا صديقي الشفيق!!

لو كنتَ تدري –وما أريد أن تدري– لأقصرت الملام.. دعني أستمتع لحظات بلــذة آلامي في موسم الذكريات، إن للذكرى مواسم وإنِّ لي منها عيداً كعيدٍ الناس!!

(1) يقصــد الدكتــورة نادية المولــودة 7 ديسمبر 1940، وهي استشــاري أمراض الأطفــال، وقد تُوفيت عام 2015م.

تراني قـد أطلتُ في حديثي، وتدعوني إلى الصمت!!... فمن لي بأن يصمت خافـقٌ بين جنبـيَّ إن صمـتَ لسـاني؟... ولا بـد أن يصمت يومـاً، ويدعوه (داعيـه) فلا يُجيب!! إنني ليُخَيَّـلُ إليَّ أحياناً وأنا أقصُّ قصة هذا القلب كأنني أكتبُ تاريخ غد قبل أن يَأزِفَ الغد!!

ودعـوني أقول... ولكنِّي لا أُريـد أن أقول.. حسبي حسبي، إنني ما زلتُ أحيا الحياة التي قدَّرها بارئ هذه النسمة!!

***

بعدَ عامٍ: وَلَدِي (1)

في هذا اليوم من عام كان مولد طفلٍ، وإنه ولدي...، وها هو بين يدي الساعة لم يـزد على ما كان يوم رأيته لأول مـرة، إلا بضعة أرطالٍ من اللحم، وبضع شعاعاتٍ مـن لمح العين، وطائفة من الخواطـر والذكريات تهمس بين نفسه ونفسي، وتصطرخ بين نظرة منه ونظرة مني...

في مثل هذا اليوم من عام تلقَّيتُهُ لأول مرَّة من بين يديْ حاضنته، صامتين لم أنبس ولم تنبس، مُطْرِقينَ لم أسأل ولم تجب، وخلوتُ إليه أحاولُ أن أستنبئه فلـم ينبئنـي، وأدنيتُ وجهاً إلى وجهٍ أحـاول أن ألمس أنفاسـه فلم يلمسني، وشـددتُ يدي عليه أُحـاول أنْ أُبكيه ليفتح عينيه فلم يبـكِ ولم يفتحْ عينيه، أكان يـدري أن الصورة التي ضمَّ عليها أجفانه لن تتراءى له بعد؛ فأمسكها أن تُفلت وأغمض عينيه؟... يا ليته...!

ولكنه لم يرها، وأحسبها لم تره كذلك، فقد نفخت فيه آخر أنفاسها وذهبت مغمضـة العينين إلى غير معاد، وخرج إلى الدنيا بلا أمٍّ، ما حاجته بعد إلى أن ينظـر ويرى؟... تعال إليَّ يا ولدي! إنني أنـا أبوك وأمك منذ الساعة إن

(1) الثقافة، العدد 212، السنة الخامسة، 1943.

كان لـكلِّ طفـلٍ في الحياة أبٌ وأمٌّ! ووضعته بيـدي في مهده الأول وجثوتُ إلى جانبه أبكي بلا دموع، وكانت الريح تقصفُ، والدارُ خاليةٌ إلا من طفلٍ جائعٍ وأبٍ سقيمٍ، وذكرى أمٍّ!!

كذلك كانت حفلة استقباله منذ عام.. واليوم عيد مولده!!

وليـدٌ بلا أمٍّ، كالمسيح خرج إلى الدنيا بغير أبٍ، ولكنَّ المسيح وجد ثدياً يُدِرُّ، وصدراً يحنو، وقلباً لا تشغله الذكريات من خفقات الحنان والحب، وسمعتُهُ يبكـي لأولِّ مرةٍ، وفتح عينيه ثم أغمضهـا وشدد قبضته على صدغيه، أكان يأمـل أن يـرى شخصاً غير مَنْ رأى فاختصر النظـرة؟... فهيهات هيهات! لقد ذهبت (تلك) فلن تعود!!

وترادفـت عليه المراضع مـن (أمهات السوق) ووجد الـدَّرَّ ولم يجد الصَّدر فعـاف الرَّضاعـة، وبكى بلا صـوتٍ ولا دمـوعٍ ولا حانٍ ولا عاطـفٍ، وذَوَى[1] ولزم الصمت أسابيع، لا يبكي ولا يتململ، إلا نظرةً خرساء ليس لها همسٌ، عجمـاء ليس لها معنـى، بلهاء ليس لها حسٌّ ولا عاطفةٌ، ليس هذا الذي أراه طفلاً من بنى آدم، إنْ هو فيما يبدو في عيني إلا صورة مصغرة من (إنسان صناعـيٍّ) خلّفه كيميائيٌّ بـارعٌ يتحدَّى القدرة البارئـة، فخرج من مصنعه (جسـم إنسـان في حركـة آلة) ثم لا شيء بعـد من إنسانيـة الإنسان أو من طبيعة الكائن الحيِّ! واجتمع بعد شتات ما بقي من أشلاء الأسرة المحطَّمة، وسعـت الصغيرتان حـول مهد أخيهما، واحدةٌ تدرج وواحـده تحبو، وسألتْ كُبراهما: من هذا يا أبي؟

وعييـتُ الجواب! لقـد مضت أسابيع منـذ كان... ولكنِّي لم أحـاول يوماً أنْ أسأل نفسي: مَنْ هذا الذي أرى؟... أذلك ولدي الذي لبثتُ سنواتٍ وسنواتٍ

(1) ذَوَى: ذَبل ويبس.

أهتفُ بــه ـ في يقظتي وفي أحلامي؟ وأسأل: «أين أنتم يا أحبَّائي؟»[1].. ولكني لم أتخيَّل قط في يقظة أو في منام أن يكون ذلك الذي كان.

بلــى.. إنه ولــدي.. ولكن أين منِّي مكانه ولا أُمٍّ؟ وهل يــرى الأب ولده أول ما يــراه إلا في عينــيّ أُمٍّ؟ فأين منـي...؟ وهل تكون سعــادة الآباء والأبناء إلا أن تتمثــل صورتها في مــرآة أربع أعين...؟ أذلــك ولدي؟ نعــم!... فأين صوته في نفســي؟ وأيــن صورته في مــرآة قلبي؟ أئنه لكذلــك؟.. فمن ذا يهمس في أذني بأمانيِّه غداً، ويُلاحيني في تخيُّل مستقبله، ويُشاركني في النظرة إليه، ويُباريني في العطف عليه، وُيذكِّرني كلما نسيتُ أنَّ لي ولداً وأنَّني أبوه؟ ماذا في الفرق بين أُبُوَّة الأب وإنسانيَّة الإنسان في العطف والمحبة؟...

أيزعــم أحــدٌ أنه لا يدري؟ هنا رجلٌ وطفلٌ، وهناك رجــلٌ وطفلُهُ، كلا الرجلين عطــوفٌ محبٌّ حسن الرغبة لمن ولي أمره، فمــا أشبه شيئاً من أحدهما بشيءٍ مــن صاحبــه، ولكنَّ أحدهمــا أبٌ والآخر إنســانٌ، فما أبعد الفــرق بين عطف وعطــف، وبين محبة ومحبــة وإن تساوى الأثر والنتيجــة في رأي العين، إنَّ ثمةً شيئــاً عظيمــاً يفرق بين معنًى ومعنًى، وبين صورة وصــورة، شيئاً يحسُّه القلب ولا تــراه العين، وإنَّ فيه لمفتاح السرِّ الأعظم المغلق عليه قلبُ كلِّ رجلٍ وامرأة لا يفتحه شيءٌ غيره، إنَّ فيه لمفتاح السرِّ الأعظم الذي انطوت عليه حكمةُ الزواج! وإنني مع ذلك ليُخَيَّل إليَّ بإزاء هذا الطفل أنني رجلٌ غير أبيه، بلى، إنَّ له عليَّ حقاً، وإنني لأحمل همَّه وأرعاه رعية كل ذي والدٍ لولده، ولكن.. آه.. ما لي وإياه لا نلتقــي في نظرة إلا ارتدَّ بصري إلى الماضي في لهفةٍ وحنين وارتدَّ بصرُهُ، ولا يخطر في بالي مرةً إلا إذا دافعته خواطري المتزاحمةُ فأبعدته عنِّي.

أهي وحشة اليأس أم ومضة السرِّ الذي كان مغلقاً فانفتح بابه على الموماة[2]

(1) انظر مقالة (أين أنتم يا أحبائي) التي أوردناها في هذا الكتاب.

(2) الموماة هي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس.

والسَّراب! ليتني أدري! ولكنَّه ولدي!

إنه أخوكِ يا ابنتي فكوني له أمّاً صغيرة!

وشبَّ الطفل على يديَّ واستدار العام، هذا عيدُ مولده وإنه ليومُ الحداد، وكما تلقَّيته من يدَيّ حاضنته أول يوم والريح تنوح والجو عاصفٌ، تناولتُه اليوم بين يدي وفي قلبي مثل زفيفِ العاصفة من لوعة الذِّكرى!

آه يا بني!

انظر إليَّ طويلاً، إنني أنا أبوك!! ما لك تُحوِّل عينيك إلى بعيدٍ كأنما تنتظر مَقْدَم أحدٍ يتلقَّاك بين يديه مهنئاً بالعيد؟

إنَّ الذي تنتظره يا بُنَيَّ لن يعود!... أم ترى عينيك الصافيتين تريان ما لا أرى وتكشفان لك عمَّا وراء الغيب، فأنت ناعمٌ بما هنالك ونحن في الحرمان؟ اضحك واملأ الدنيا حولك زياطاً وفرحاً، أو فابك واملأها صراخاً وندباً، ما أنتَ إلا أنتَ، طفلٌ بلا أمٍّ في عيد مولده الأول، فالتمس لنفسك ما شئت من أسباب المسرَّة أو أسباب المساءة، لقد اقترنَت في حياتك ذكرى بذكرى، فاحتفل بعيد الحياة أو بذكرى الموت ما شئت منهما، ولكن لا تسألني شيئاً.

لقد ماتت في نفس أبيك منذ ذلك اليوم القريب كل معاني السرور والألم، فما له فرحة بعد ولا تَرْحَة[1] ولا هو يملك من أسبابها شيئاً، اضحكْ أو ابكِ فإنما الحياة هذان ولا شيء غير هذين، وإنها بهذين لخدعةٌ وأضحوكةٌ ساخرةٌ وحبالةُ صائدٍ!

لا تحترس من شيءٍ ولا تخش شيئاً ولا تُؤمِّل في شيءٍ، فإنما الاحتراس والخشية والأمل، كل ذلك أضاحيك يسخر بها القدر من الإنسان الحي حين يتوهَّم أن له في الحياة إرادة! الاحتراس والخشية والأمل، الماضي والحاضر

(1) حُزْنه.

والمنتظـر، العدة والوسيلة والغاية: كل هذه أسماءٌ سمَّاها الناس بلا مسمى، ليعيشـوا على التوهُّم حيناً ثم يموتـوا، وما بشيءٍ من ذلك كانت حياتهم ولا كان الموت، ولكن بالقدر المقدور منذ الأزل في صفحة الغيب.

أتراكَ وعيتَ هذا الكلام يا بُنيَّ أو لم تعه؟ ولكنِّي لا أريدك أنْ تعيه، فإنما هو حديثي إلى نفسي، وإنَّ أمامك الحياة فخذ منها ما شئتَ وَدَعْ، وكنْ أنت كما تريـد لنفسـك، وددت لو كان حديثي إليك يا بنـي في هذه المناسبة غير هذا الحديـث، وقد كنتُ زَوَّرتُ[1] لك في نفسي كلامـاً غير هذا منذ سنين، فأين هو مني منذ الساعة؟

ولكن أين أنا من نفسي الساعة؟

وكنتَ يوماً رأيتُك يا بُنيَّ في أحلامي منذ سنين، لقد رأيتُ لك صورةً غير هذه التـي أرى، وكانت من خداع المُنَى، فاليوم تتراءى لي هذه الصورة وقد غاب نصفهـا في التراب فتجـد لي ذكرى، وما أطيـق أن أحدِّثك، ولكن صفحات غـير هذه الصفحات ستُعرِّفك كيف كان أبوك لـك وأنت ما تزال بعد أمنيةً تختلـج في صدر فتىً وفتاةٍ ضربت التقاليد بينهما الحجاب بضع عشر عاماً قبل أنْ يلتقيا، ثم ما كادا يلتقيان حتى افترقا إلى غير لقاء!

ذَانـكَ أُمُّـك وأبـوك.. فإذا قُـدِّر لك يومـاً في الحياة أنْ تجد بعـد حرمانٍ، فاحرص على الاستمتاع بما وجدت وأشعر نفسك لذَّته قبل أنْ تفقد أسبابه، ودع الغد لله يحكم فيه بما هو مقدورٌ في لوح الغيب، إنَّ الجدَة بعد الحرمان أذانٌ لمن يعي بأن وراءها الحرمان الأبدي الذي لا ينتهي.

لقـد حدثتـك طويلاً يا بُنيَّ ولم أقـل شيئاً، وما أُريـد أن أَطوي عنك في هذه المناسبـة من خـبري شيئاً، ولكـن أمراً ذا بـالٍ يحبسني عن الـكلام، إنني

(1) أعددتُ وهيَّأتُ.

علـى مَوْعِدَة غالية، إنني ذاهبٌ الساعة إلى ذلـك الملتقى القريب النَّائي... لأحدِّثها حديثاً من حديثي، وأحسبُها تنتظرُ، ولعلَّني أعودُ...

***

الأمومةُ الصَّغيرةُ(1)

وأسفـر الصُّبح، فهممتُ أنْ أُزايـل مجلسي على حافة السرير، وألقيتُ نظرةً علـى الصغيرة الراقدة ثـم سحبتُ لا أكاد أُحدثُ صوتـاً ولا حركةً، وأحسَّت الفتـاة خلاء موضعي ففتحت عينيها وهتفتْ: إلى أين يا أبت؟ وتلبَّثتُ هنيهة لا أُجيـب، فقد كنـتُ أحسبها نائمة حين اخترتُ لهـا ولي أن أتركها ساعةً أو ساعات لتستريح بعد ليلة طويلة ساهرة، وأذهبَ لبعض شأني، ولكنَّ الصغيرة لم تكنْ نائمةً؛ وإنما أغمضَتْ عينيها لحظةً من إعياء السَّهر والحُمَّى!

وعُدتُ إلى حيث كنـت أُعابثُها وأبتسمُ لها وأمسحُ بكفِّي على رأسها ويديها، وثابَـتْ نفسها إلى السكون والرضـا فلم تُعاود سؤالهـا! ودقَّ جرس الساعة دقَّاتـه السَّبع، ودخلت الخادمة تحمـل إليها جرعةَ الـدَّواء، ونهضت ثانيةً، وتعلَّقت نظراتها بي لحظةً ثمَّ كَفَّت، فكأنما همَّت أن تسألني ثانية: إلى أين؟ ولكنها كانت تدري فقد سمعتُ دقَّات الساعة، وخرجتُ عدْواً إلى ميعادي... ثـم عُدتُ، وكانـت تنتظـرني في فراشها ومَـدَّت إليَّ عينيهـا متشوِّقة وعلى شفتيهـا ابتسامـةٌ وسألتْ: أين كنـتَ؟ وكانت أيضاً تدري! ومـدَّت يدها إلى جيبي كعادتها في كل ميعاد، وخرجت يدها فارغةً إلا من تذكرة الترام، ولم تغضـب، ولم تعتـب، فلعلها كانت تعرف أنَّه لم يكـن لي في مثل هذا اليوم أنْ أقف على دكاكين الباعة وإنّ بي شوقاً إلى أنْ أراها فوجدت لي معذرةً!

وأسنَدَتْ رأسها إلى راحتي ونامتْ، وتردَّدت أنفاسها هادئةً كنسمات الفجر؛ فأغفيتُ إلى جانبها وإنَّني لفي ثياب العمل، وصحوتُ فإذا راحتها الصغيرة

---

(1) الثقافة، العدد 215، السنة الخامسة، 1943.

تسند رأسي وعيناها تنظران إليَّ في مثل حنان الأم ومحبة الزوج، وابتسمتُ لها فابتسمتْ، ثم قالت: يا أبت...! وسكتَت لحظة، قلتُ: ماذا يا ابنتي؟ قالت: لم تسأل عن أخويَّ.. إنَّ (أحمد) لم يرضع اليوم، و(نانا) قد خالفت الخادم إلى الحديقة والبرد قارسٌ! وأذكرَتْني الطفلة الصغيرة ما نسيتُ من واجب الأب فنهضتُ إلى الغرفة الثانية لأشهد عراكَ الرضيع وأخته، ثم عُدتُ وأنا أحملُ على ذراعي وأقود في يدي، لله أنتِ أيتها الطفلةُ الرَّاقدة في فراش الضَّنى... إنك الأمومة الصغيرة لهذين الطفلين، وقد فقدوا الأم، وإنَّ فيكِ العزاء لهذا الشاب المكتهل قبل الكهولة.. فعيشي لنا... عيشي لأخويكِ وأبيكِ!!

***

بَنَاتِي(1)

ولكنِّي لم أبدأ هذا الحديث لأكتب عن (مدرسة شوقي) أو (جائزة شوقي) فإنَّ لذلك أواناً آخر لعله أكثر مناسبةً، ولكن منظراً رأيته ذات صباح من الأسبوع الماضي فلم أَنْسَه منذ رأيته، ولا يزال وجه ابنتيَّ الصغيرتين يُذكِّرني إياه كلما هممتُ أن أنسى...

كان المطر ينهمر كما تنصبُّ الدِّلاء فلا تكاد دارٌ في المدينة أن تَعصم مَن فيها من أذى السيل، وكان البرد يلفح الوجوه فلا تُفَرِّقُ بين لسعته وحرِّ النار، وما يزال ظلُّ الليل على وجه السماء، فلولا حسابُ الحاسب لجهل الناس أنَّهم في النهار... ووقفت ساعةً أؤامر نفسي قبل أن أجد العزم على الخروج من داري بالمطرية في ذلك اليوم العابس، ثم اقتحمت الطريق تحت السيل المنهمر، ووجَّهت وجهي نحو (المحطة) ولم يكن ثمة غيري وغير قليلٍ

(1) الثقافة، العدد 221، السنة الخامسة، 1943، ويقصد بهن: تهاني ونادية.

مثلي يقصــدون (الديوان) أو يطلبون العيش، ولكــن ما هذا الذي أرى على مَبْعَدة؟ إنها فتاةٌ لم تَعْدُ الطفولة، وإنَّها لتحمل بيديها مظلة وحقيبة وتستند إلى جدارٍ، ما خطب هذه المسكينة وما حاجتها؟...

هــلا! سميحة! ما خرج بك يا بنيَّة هذه الساعــة وكيف رضي أبوك؟... ونظرتُ إليهــا وقد ابتلَّــت مريلتها حتى ما تمنــع عن صدرها رطوبة المــاء، فعرفت أين تقصــد، إنها في هــذا المكان بين الريــاح الأربع في المطر الدافــق تنتظر سيارة المدرســة تحملهــا إلــى (مصــر الجديــدة).. وأيــن (المطريــة) مــن (مصر الجديــدة)؟ ولكن هذا مــا أرادت وزارة المعارف لبنات هــذه الضاحية، وماذا يصنعن وليس ثمة مدرسة أقرب إليهن من مدرسة العباسية أو مصر الجديدة؟

قلتُ: فلماذا يا ابنتي لم تلزمي اليوم دارك أو تنتظري السيارة وراء الزجاج مــن نافــذة دار أبيــكِ؟ قالت الصغــيرة الغارقــة في ثيابها: (اليــوم اختبار الفــترة) وما أريــد أنَ يفوتني، ثم إن سائق السيارة لا يمــر بدور التلميذات داراً داراً.

قلــتُ: حتــى في هــذا اليوم!! وهبَّــت رويحة تسفــي المطر في وجهــي حتى لم أكــد أرى، فاستدرتُ ومضيتُ بالصغيرة على رغمهــا إلى دار أبيها والأرض تجاذبنــي إيَّاه كلما هممتُ أن أنسى، وها أنذا أقرأ الساعة أبيات شوقي وما كان مــن أثرهــا، فآسفُ أشدَّ الأسف أن شوقي لم يكن لــه يومئذٍ بُنيَّات، إذاً لكان للمطرية اليوم مدرسة بنات فلا تتجشم (سميحة) بنت صديقي ذلك المشوار كل يوم إلى مصر الجديدة ولا تتجشَّم ابنتاي في غدٍ!!

ومــع ذلك فماذا كانت ضاحية المطرية منذ ثلث قــرنٍ يوم أنشأ سعد زغلول مدرسة الزيتون ليتعلم فيها بنوها وبنو شوقي وماذا هي اليوم؟

إنَّ ســكان هــذه الضاحيــة ليبلغــون اليــوم عشرة أمثــال ما كانــوا يومئذ أو يزيــدون، أفليس مــن حقهم أن يكتبوا اليوم لنجيب الهــلالي يقولون: بناتنا

يا نجيب!!...؟

ومـا يزال لشوقي دار في المطرية تحمل اسمـه في أفواه الشيوخ من السكان، أفليس من الوفاء بذكرى شوقي أن نتخذها داراً لمدرسة حتى يتَّصل ماضيها في العلـم بحاضرهـا، ويتجدَّد اسـم شوقـي في المطريَّة على أفـواه الشُّبان والشَّابات؟ إنْ لم يكن لك من حقٍّ بناتنا في العلم فإنه حق الوفاء!

***

يا ابنتي العزيزة تهاني[1]

حصَّني موهبتكِ الأدبية بالقراءة المتَّصلة...

وحصِّني رِقَّتكِ ببعض الكبرياء...

وحصِّني إحساسكِ المُرهَفَ بالصَّبر على بعض ما يُغضِب...

وحصِّني ذلاقة لسانكِ برياضته على الصمت الطويل...

وحصِّني أذنكِ اللاقطة عن استخدام كل ما تسمعين من ألفاظٍ...

وحصِّنـي قلبـك الفياض بمشاعره بالمواظبـة على الصـلاة ومداومة ذكر الله...

وإذا آلمـكِ شيءٌ من أشياء الحياة، فاذكـري أنَّ أباكِ كان أصبر الصابرين من شباب جيله...

وإذا تطلَّعْـتِ إلى شيءٍ بعيدٍ عن مـرأى عينيكِ، فَروِّضي نفسكِ على الإيمان بأن كل بعيدٍ يدنو بالكفاح والصبر والاعتماد على الله...

وأَشْعِـري قلبَـكِ دائماً بأن رضا الله هو غاية الحيـاة؛ فاجعلي رضاه غايتكِ مهما احتملتِ في سبيل ذلك من الآلام.

(1) وجـدتُ هذه الكلمات ضمـن أوراق الأستاذ العريان –رحمه الله– مؤرَّخةً في 26 أبريل 1954، وقد أذِنتْ لي الدكتورة تهاني في تصويرها مع أوراق أخرى كثيرة.

ملحق الوثائق

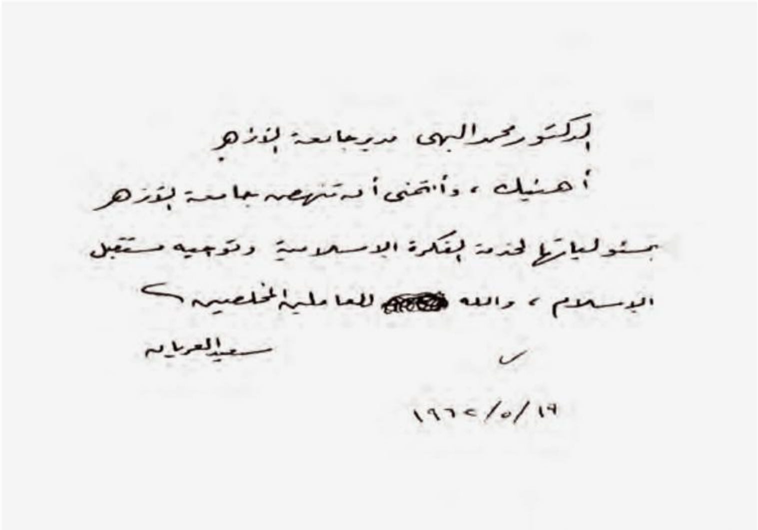

الدكتور محمد البهي مدير جامعة الأزهر

أهنئك ، وأتمنى أن تنهض جامعة الأزهر

بمسئوليتها لخدمة الفكرة الإسلامية وتوجيه مستقبل

الإسلام ، والله للعاملين المخلصين

سعيد العريان

١٩٦٢/٥/١٩

مسودة تلغراف تهنئة للدكتور محمد البهي بتوليه

جامعة الأزهر - 1962

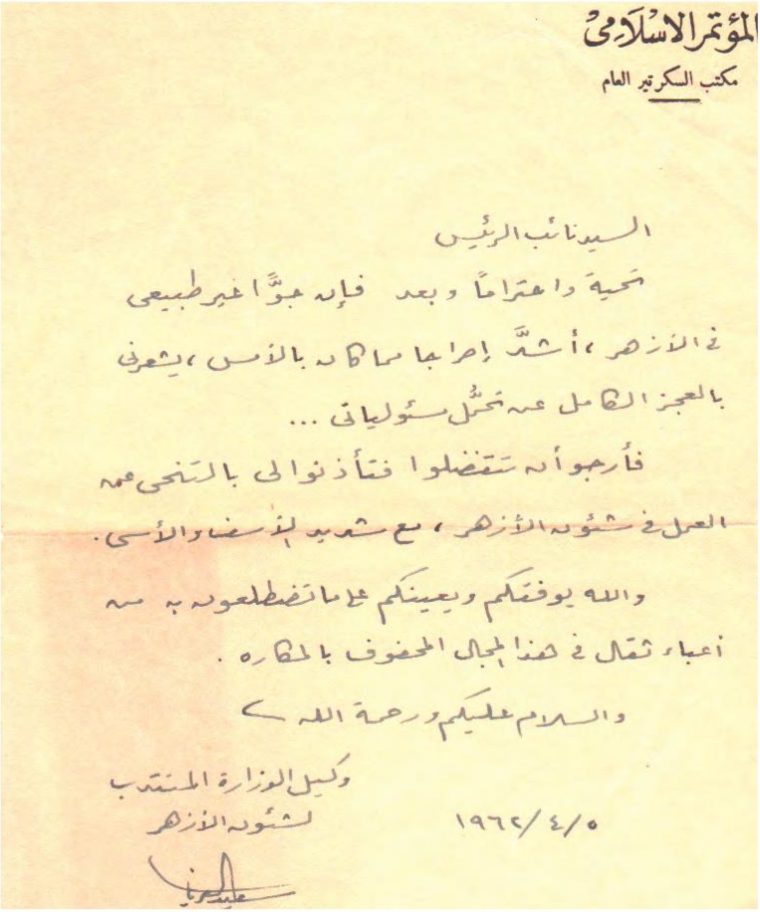

المؤتمر الاسلامي
مكتب السكرتير العام

السيد نائب الرئيس

تحية واحتراماً وبعد فإن جواً غير طبيعي في الأزهر، أشد إحراجاً مما كان بالأمس، يشعرني بالعجز الكامل عن تحمل مسئولياتي ...

فأرجو أن تتفضلوا فتأذنوا لي بالتنحي عن العمل في شئون الأزهر، مع شديد الأسف والأسى.

والله يوفقكم ويعينكم على ما تضطلعون به من أعباء ثقال في هذا المجال المحفوف بالمكاره.

والسلام عليكم ورحمة الله

وكيل الوزارة المنتدب
لشئون الأزهر

١٩٦٢/٤/٥

استقالة مقدمة إلى نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت – 1962

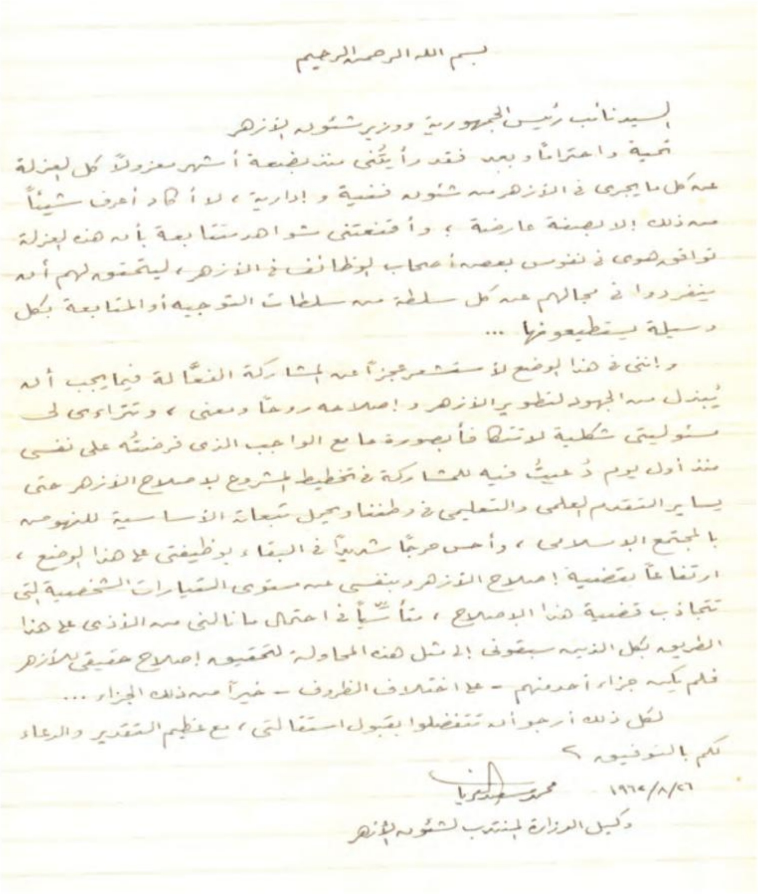

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد نائب رئيس الجمهورية ووزير شئون الأزهر

تحية واحتراماً وبعد فقد رأيتني منذ بضعة أشهر معزولاً كل العزلة عن كل ما يجري في الأزهر من شئون فنية وإدارية، لا أكاد أعرف شيئاً من ذلك إلا بصفة عارضة، وأقنعتني شواهد متتابعة بأن هذه العزلة توافق هوى في نفوس بعض أصحاب الوظائف في الأزهر، ليتحقق لهم أن ينفردوا في مجالهم عن كل سلطة من سلطات التوجيه أو المتابعة بكل وسيلة يستطيعونها ...

وإنني في هذا الوضع لأستشعر عجزاً عن المشاركة الفعالة فيما يجب أن يبذل من الجهود لتطوير الأزهر وإصلاحه روحاً ومعنى، وتتراءى لي مسئوليتي شكلية لا تتسق أبداً بصورة ما مع الواجب الذي فرضته على نفسي منذ أول يوم دعيت فيه للمشاركة في تخطيط المشروع لإصلاح الأزهر حتى يساير التقدم العلمي والتعليمي في وطننا ويحمل تبعاته الأساسية للنهوض بالمجتمع الإسلامي، وأحس حرجاً شديداً في البقاء بوظيفتي على هذا الوضع، ارتفاعاً بقضية إصلاح الأزهر وبنفسي عن مستوى التيارات الشخصية التي تتجاذب قضية هذا الإصلاح، متأسياً في احتمال ما نالني من الأذى على هذا الطريق بكل الذين سيقفون إلى مثل هذه المحاولة لتحقيق إصلاح حقيقي للأزهر فلم يكن جزاء أحدهم - على اختلاف الظروف - خيراً من ذلك الجزاء ...

لكل ذلك أرجو أن تتفضلوا بقبول استقالتي، مع عظيم التقدير والدعاء لكم بالتوفيق ؟

١٩٦٢/٨/٢٦ - محمد [illegible]

وكيل الوزارة المنتدب لشئون الأزهر

استقالة أخرى تقدَّم بها إلى نائب رئيس الجمهورية — 1962

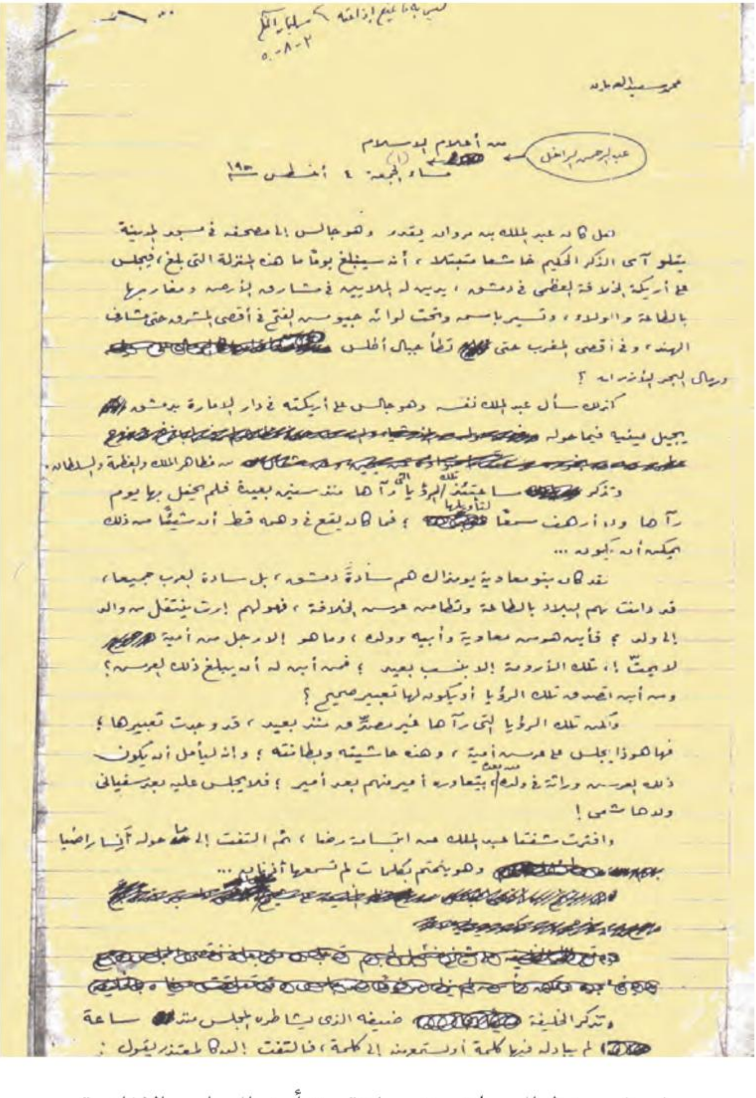

٢-٨-٥٠

محمد سعيد العريان

من أحلام الإسلام

عبد الرحمن الداخل (١)

مساء الجمعة ٤ أغسطس ١٩٥٠

هل كان عبد الملك بن مروان يقدر وهو جالس إلى المصحف في مسجد المدينة يتلو آي الذكر الحكيم خاشعاً متبتلاً، أنه سيبلغ يوماً ما هذه المنزلة التي بلغ، فيجلس على أريكة الخلافة العظمى في دمشق، يدين له الملايين في مشارق الأرض ومغاربها بالطاعة والولاء، وتسير باسمه وتحت لوائه جيوش الفتح في أقصى المشرق حتى شاطئ الهند، وفي أقصى المغرب حتى تطأ جبال الأطلس [illegible] ورمال البحر [illegible]؟

كذلك سأل عبد الملك نفسه وهو جالس على أريكته في دار الإمارة بدمشق [illegible] يجيل عينيه فيما حوله [illegible] من مظاهر الملك والعظمة والسلطان.

وتذكر [illegible] ساعتئذ تلك الرؤيا التي رآها منذ سنين بعيدة فلم يحفل بها يوم رآها ولا أرهف سمعاً [illegible] لتأويلها؛ فما كان يقع في وهمه قط أن شيئاً من ذلك يمكن أن يكون...

لقد كان بنو معاوية يومئذاك هم سادة دمشق، بل سادة العرب جميعاً، قد دانت لهم البلاد بالطاعة وتطامن عرش الخلافة، فهو لهم إرث ينتقل من والد إلى ولد؛ فأين هو من معاوية وأبيه وولده، وما هو إلا رجل من أمية [illegible] لا حيث!، تلك الأرومة إلا بسبب بعيد؛ فمن أين له أن يبلغ ذلك العرش؟ ومن أين اتصدق تلك الرؤيا أو يكون لها تعبير صحيح؟

ولكن تلك الرؤيا التي رآها غير مصدق منذ بعيد، قد وجدت تعبيرها؛ فها هو ذا يجلس على عرش أمية، وهذه حاشيته وبطانته؛ وإنه ليأمل أن يكون ذلك العرش وراثة في ولده يتعاورونه أميراً منهم بعد أمير؛ فلا يجلس عليه بعد سفياني ولا هاشمي!

وافترت شفتا عبد الملك عن ابتسامة رضا، ثم التفت إلى من حوله آنساً راضياً [illegible] وهو يتمتم بكلمات لم تسمعها آذانهم...

[illegible]

وتذكر الخليفة [illegible] ضيفه الذي يشاطره المجلس منذ [illegible] ساعة [illegible] لم يبادله فيها كلمة أو يستمع منه إلى كلمة، فالتفت إليه كالمعتذر يقول:

نموذج بخط العريان، وهو حلقة من أحد البرامج الإذاعية

1950 –

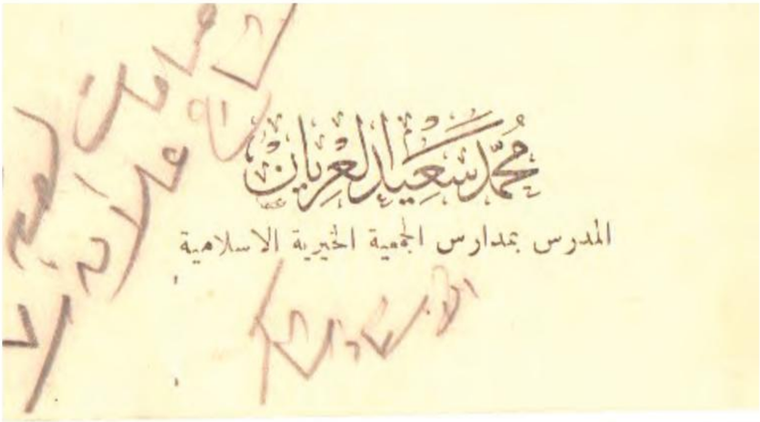

صورة لبطاقة التعريف الخاصة (الكارد الشخصي)
ومكتوب عليه عنوان الشيخ محمود شاكر

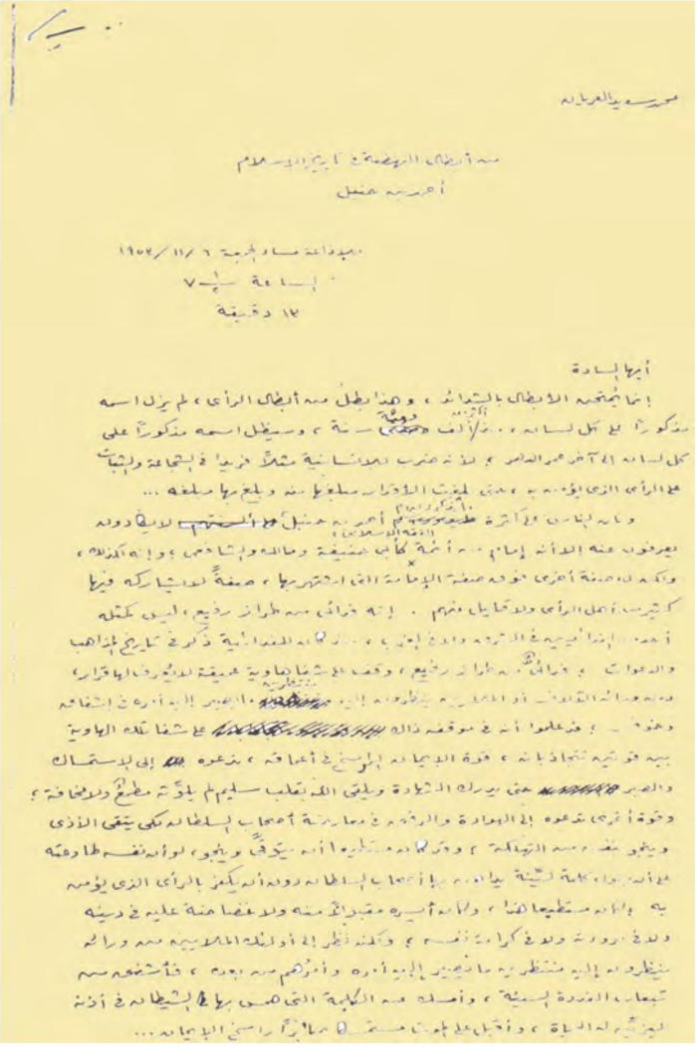
محمد سعيد العريان

من أبطال [illegible] في تاريخ الإسلام
أحمد بن حنبل

[illegible] مساء الجمعة ٦ / ١١ / ١٩٥٢
الساعة ٧ ١/٢
١٢ دقيقة

أيها السادة
إنما يمتحن الأبطال بالشدائد ، وهذا بطل من أبطال الرأي ، لم يزل اسمه مذكوراً على كل لسان منذ ألف [illegible] سنة ، وسيظل اسمه مذكوراً على كل لسان إلى آخر الدهر ؛ لأنه ضرب للإنسانية مثلاً فريداً في الشجاعة والثبات على الرأي الذي يؤمن به ، [illegible] ...

[illegible]

نموذج خطي آخر للعريان – 1953

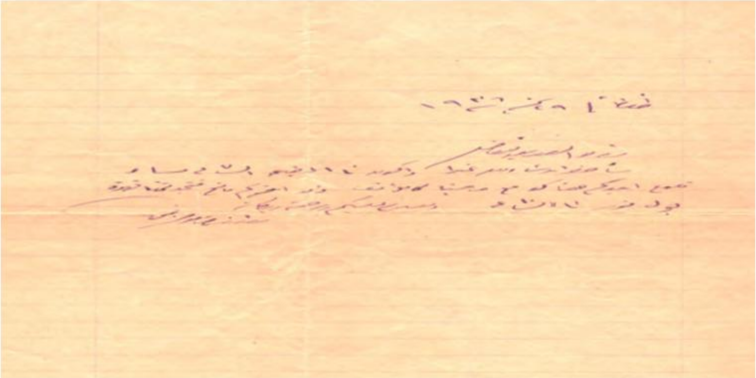

رسالة خطية من مصطفى صادق الرافعي – 1936

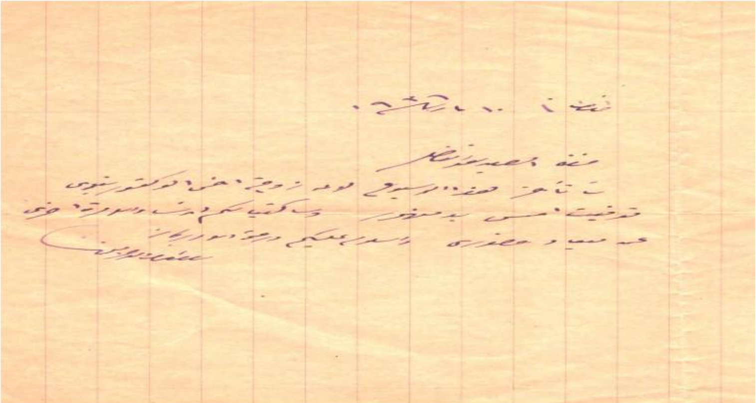

رسالة أخرى من الرافعي يخبره فيه بوفاة زوجة شقيقه
بدمنهور – 1936

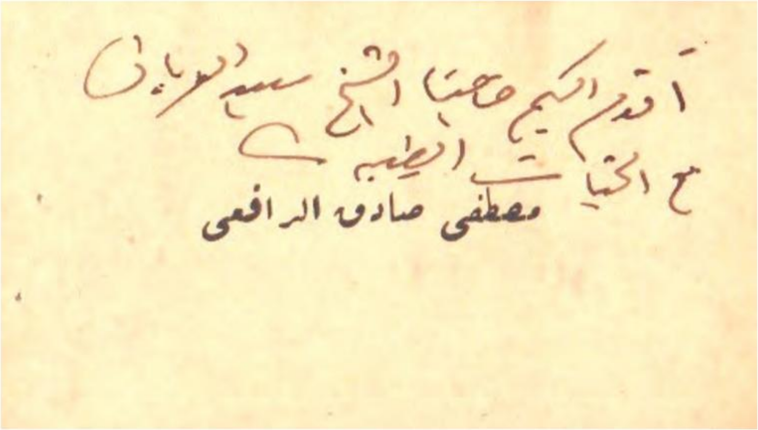

بطاقة الرافعي وفيها توصية كُتب عليها: أُقدم إليكم

صاحبنا الشيخ سعيد العريان

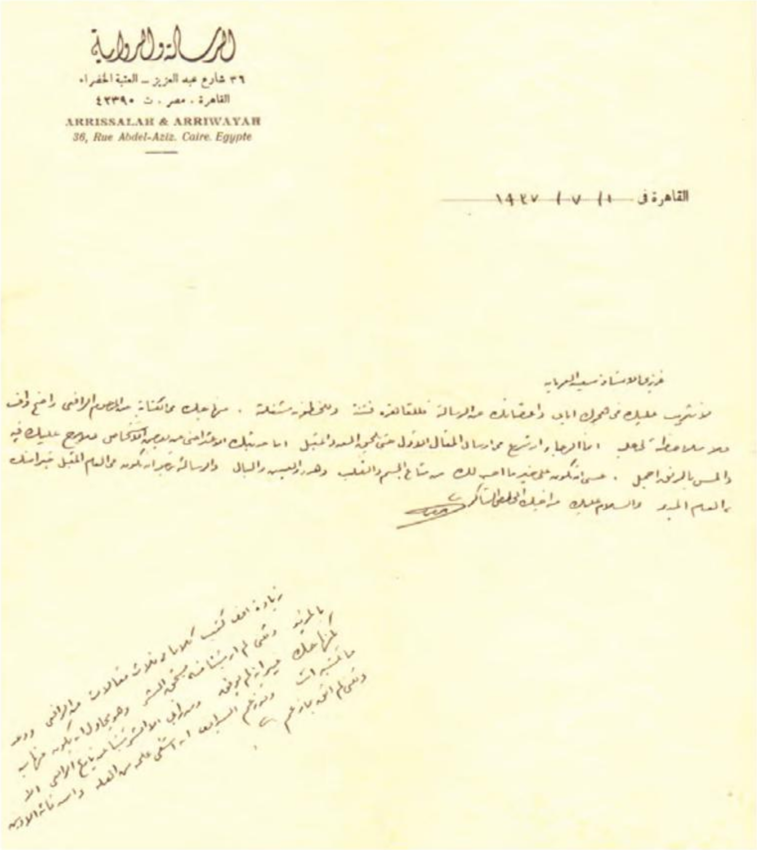

الرسالة والرواية

٣٦ شارع عبد العزيز ـ العتبة الخضراء

القاهرة ، مصر . ت ٤٢٣٩٠

ARRISSALAH & ARRIWAYAH

36, Rue Abdel-Aziz. Caire. Egypte

القاهرة في ١١ / ٧ / ١٩٣٧

رسالة من الأستاذ أحمد حسن الزيات (صاحب مجلة الرسالة) – 1937

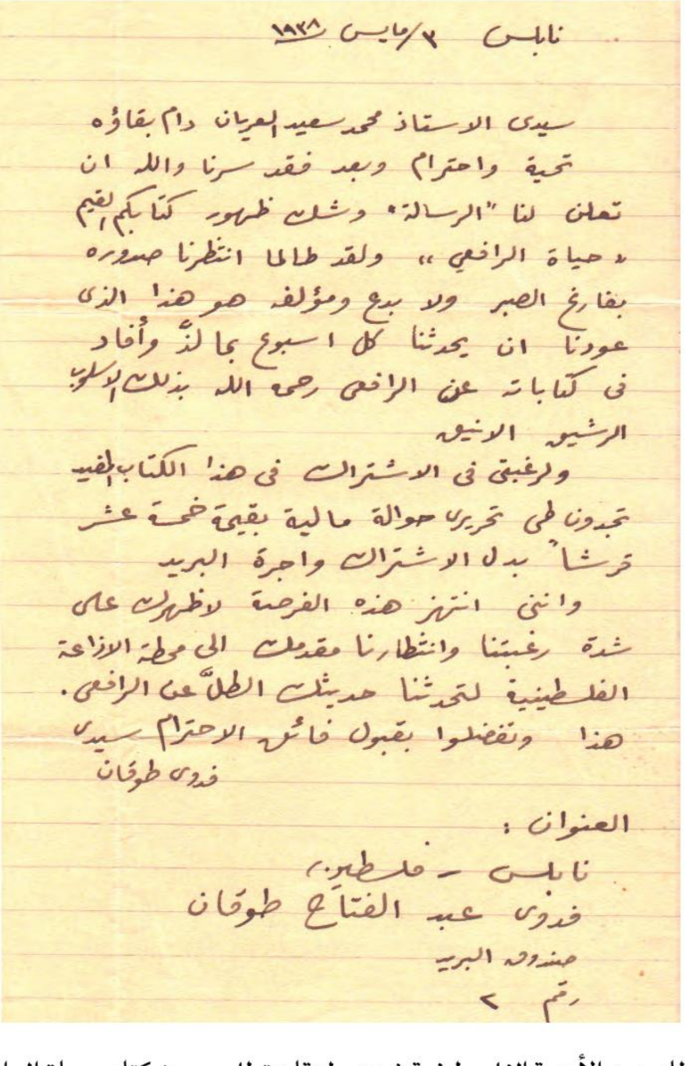

نابلس ٢/مايس ١٩٣٨

سيدى الاستاذ محمد سعيد العريان دام بقاؤه
تحية واحترام وبعد فقد سرنا والله ان
تعلن لنا "الرسالة" وشك ظهور كتابكم القيم
« حياة الرافعي » ولقد طالما انتظرنا صدوره
بفارغ الصبر ولا بدع ومؤلفه هو هذا الذى
عودنا ان يحدثنا كل اسبوع بما لذ وأفاد
فى كتاباته عن الرافعى رحمه الله بذلك الاسلوب
الرشيق الانيق
ولرغبتى فى الاشتراك فى هذا الكتاب المفيد
تجدون طى تحريرى حوالة مالية بقيمة خمسة عشر
قرشاً بدل الاشتراك واجرة البريد
وانى انتهز هذه الفرصة لاظهر لك على
شدة رغبتنا وانتظارنا مقدمك الى محطة الاذاعة
الفلسطينية لتحدثنا حديثك الطلى عن الرافعى.
هذا وتفضلوا بقبول فائق الاحترام سيدى
فدوى طوقان

العنوان :
نابلس - فلسطين
فدوى عبد الفتاح طوقان
صندوق البريد
رقم ٢

خطاب من الأديبة الفلسطينية فدوى طوقان تطلب حجز كتاب حياة الرافعي للعريان – 1938

سيرة ذاتية

وليد عبدالماجد كساب.

كاتب وإعلامي مصري، من مواليد سنة 1976م.

لــه عــدة مؤلفات في النقــد والأدب والبلاغــة القرآنية والسياســة الشرعية وغيرها من قضايا الفكر الإنساني.

عمل برابطة الجامعات الإسلامية مديراً لإدارة التنسيق والمتابعة وسكرتيراً لمجلتها (الجامعة الإسلامية) وجميع إصداراتها الأخرى.

العربية

في إطار الاهتمام بالأدب الأصيل واستعادة رموز الأصالة مكانتها اللائقة بها في هذا الوقت العصيب من تاريخ أمتنا، تقدم المجلة العربية هذا الكتاب الذي يكشف جوانب خفية من حياة الأديب محمد سعيد العريان (1905-1964)، وبعض شؤونه الاجتماعية والفكرية، كما يُسجِّلُ بعض جهاده في مقاومة المستعمر البريطاني، وذكرياته في فلسطين التي حلَّ ضيفاً عليها سنة 1938، ومعاناته الكبرى بفقد زوجته حتى صار مضرب المثل في هذا الأمر، وغيرها من المقالات التي تمثل حُمُولةً إنسانيةً كبيرة.